كتاب تاريخ مدينة فاس

كتاب تاريخ مدينة فاس

المعروف بـ

زهرة الآس في بناء مدينة فاس

للجزنائي

دراسة وتحقيق وتعليق

مديحة الشرقاوي

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح

رائد الفكر المغربي الأندلسي

الدكتور حسين مؤنس

تحية وتقدير

وعرفانا

بالجميل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الصادق الأمين وعلى أله وصحبه وبعد :

مـــازال المغـــرب العـــربى الإســـلامى يكون ميداناً هاماً من ميادين التاريخ الإســـلامى ، التى تحتاج إلى دراسة وبحث وتمحيص حتى يقف أبناء الأمة الإسلامية اليـــوم عـــلى معـــرفة منابع القوة الحقيقية التى تكفل لهم استرداد سألف عظمتهم ورسالتهم السامية فى خدمة الحضارة الإنسانية ذلك أن المغربى قد أسهم بدور فريد فى حمـــل رســـالة الإسلام وحضارته إلى أوروبا ، كما كان فى الوقت نفسه أرض الطـــليعة التى تعرضت للأحقاد الأوروبية الزاحفة على دار الإسلام، والدرع الذى كسر أنياب هذه الهجمة الحاقدة على الإسلام وأهله .

إن مديـــنة فـــاس الـــتاريخية فى المغـــرب العربى لهى واحدة من درر المدن الإسلامية الثقافية ، ولا يضاهي دورها فى المغرب الإسلامى سوى القيروان وقرطبة وكمـــا جـــاء فى المسالك للعمرى: أنها تشبه دمشق وغرناطة وأهلها يشبهون أهل الإسكندرية فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس .

ويقـــول القزوينى فى كتابه أثار البلاد وأخبار العباد صـــ ١٢ – ١٣ عن مدينة فاس : مدينة كبيرة مشهورة فى بلاد بربر على بر المغرب بين ثنيتين عظيمتين، والعمـــارة قـــد تصاعدت حتى بلغت مستواها، وقد تفجرت كلها عيوناً تسيل إلى

قــراره إلى نهــر منبسط إلى الأرض ينساب إلى مروج خضر، وعليها داخل المدينة ستمائة رَحْى ولها قهندز فى أرفع موضع فيها ويسقيها نهر يسمى المفروش .

وقــال أبــو عبيد البكرى : فاس منقسمة قسمين وهى مدينتان مسورتان يقال لأحدهما عدوة القرويين وللأخرى عدوة الأندلسيين ، وفى كل دار جدول ماء وعلى بابها رحى وبستان ، وهى أكثر بلاد المغرب ثماراً وخيراً ، وأكثر بلاد المغرب يهــوداً ، فيهــا يختلفون إلى سائر الآفاق، بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلسى حسن الطعــم جــداً ، يصلح بعدوة الأندلسيين ولا يصلح بعدوة القرويين وسميذ عدوة الأندلســيين أشجع من رجال القرويين ونساؤهم أجمل، ورجال القرويين أجمد من رجال الأندلسيين.

قال إبراهيم الأصيلى :

دَخَلْتُ فاساً وبى شَوْق إلى فــاس ... والجبن يأخذ العينين والــرأس

فلست أدخل فاساً ما حييت ولو ... أعطيت فاسا وما فيها من الناس

ويقــول يــاقوت فى كتابه معجم البلدان عن مدينة فَاسُ : بالسين المهملة بــلفظ فــاس النجار ، مدينة مشهورة كبيرة على برِّ المغرب من بلاد البربر وهى حاضــرة البحر وأجلُّ مُدُنه قبل أن تختطّ مَرَّاكشُ وفاس مختطُة بين ثنيَّتين عظيمتين وقــد تصاعدت العمارة فى جبنهما على الجبل حتى بلغت مستواهما من رأسه وقد تفجَّــرت كلُّها عيوناً تسيل إلى قرارة واديها إلى نهر متوسط مستنبط على الأرض منبجس من عيون فى غربها على ثُلُثى فرسخ منها بجزيرة دَوى ثم ينساب يميناً وشمالاً فى مروج خُضر فإذا انتهى النهر إلى المدينة طلب قرارها ليفترق منه ثمانية أنهار تشقُّ المديــنة عليها نحو ستمائة رحَى فى داخل المدينة كلُّها دائرة لا تبطل ليلاً ولا نهاراً تدخــل مــن تلك الأنهار فى كل دار ساقيةُ ماء كبارُ وصغارُ وليس بالمغرب مدينة

يتخلّلها الماء غيرها إلا غرناطة بالأندلس ... وبفاس يُسمعُ الأُرْجُوَانُ والأكسية القِرْمزية وقلعتها فى أرفع موضع فيها يشقّها نهر يسنِّى الماء المفروش إذا تجاوز القلعة أدار رحــاً هناك وفيها ثلاثة جوامع يُخْطَب يوم الجمعة فى جميعها ... قال عبيد الــبكرى : مديــنة فاس مدينتان مفترقتان مسوَّرتان وهى مدينتان عدوة القَرَويّين وعدوة الأندلسيين وعلى باب دار الرجل رحاه وبستانه بأنواع التمر وجداول الماء تخترق فى داره وبالمدينتين أكثر من ثلاثمائة رحا وبها نحو عشرين حماماً وعلى أكثر بــلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق ومن أمثال أهل المغرب فاس بلد بلا ناس ... وكلنا دوئى فاس فى سفح جبل والنهر الذى بينهما مخرجه من عين فى وســط بــلد من عُسرة على مسيرة نصف يوم من فاس ... وأسّست عدوة الأندلســيين فى سنة ١٩٢هــ وعدوة القروييّن فى سنة ١٩٣ هــ فى ولاية إدريس ابــن إدريس ومات إدريس بمدينة ولِيلَى من أرض فاس على مسافة يوم من جانب الغــرب فى سنة ٢١٣هــ .. وبعدوة الأندلسيين تُفّاحٌ حلوٌ يعرف بالأطرابلسى جــليل حسن الطعم يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين وسميدُ عدوة الأندلسيين أطيــب من سميد القرويين لحذقهم بصنعته وكذلك رجال عدوة الأندلسيين أشجعُ وأنجــدُ واجلدُ من القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين ورجال القرويين أجمل مــن رجال الأندلسيين وفى كل واحدة من العدوتين جامعٌ مفردٌ ... وقال محمد ابن إسحاق المعروف بالجليلى :

يا عدوة القرويين التى كــرمتُ	لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سَرَى الله عنها ثوب نعمته	أرضٌ تجنبت الأنام والــزوار

وقال إبراهيم بن محمد الأصيلى والد الفقيه أبي محمد عبد الله :

دخلتُ فاساً وبى شوقُ إلى فــاس	والحَيّنُ يأخذ بالعينين والراس
فلست أدخل فاساً ما حييت ولو	أعطيتُ فاسا بما فيها من الناس

وقال أحمد بن فتح قاضي ناهرت فى قصيدة طويلة:

اسلَحْ على كلّ فاسى مررت به ... فالعدوتين معاً لا تبقيَنْ أحـدا

قومٌ غُذُوا الُّؤَم حتى قال قائلهم ... من لا يكون لئيماً لم يعش رَغُدًا

ومـنها إلى سـبتة عشرة أيام وسبتة أقرب منها إلى الشرق ... وقال إليكى يهجوا :

فِراقُ الهمّ عند خروج فـاس ... لكلّ مُلمُّة تختبى وبـأس

فأما أرضيا فأجـلٌّ أُرض ... وأما أهلها فأحسنُ نـاس

بلادٌ لم تكن وطأ لحـرٍ ... ولا شتملتُ على رجل مُواسى

وله فيهم ايضـاً :

أطعن يابرّك من تلقى من النـاس ... من أرض مصر على اقصى قُرى فاس

قومٌ يمصون ما فى الأرض من لطف ... مصّ الخليع زمانَ الورد للكلام

وله أيضاً فيهم :

دخلتُ بلدةَ فاس ... أسترزق الله فيهم

فما تيسر منهـم ... أعَفتهُ فى بنيهـم

وقـد نسـب إليها جماعة من أهل العلم ... منهم أبو عمر عمران بن موسـى بـن نجح الفاسي فقيه أهل القيروان فى وقته نزل بها وكان قد سمع بالغرب ورحل وسمع بالمشرق جماعة من العلماء وكان من أهل الفضل والطلب وغيرهم .

ويقول الدكتور محمد كمال شبانة :

ويعـزز هذا القول ما جاء عند صاحب كتاب " جنى زهرة الآس " . فى أخـبار فاس ، من قوله : " قال الحكماء : لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر ، وطبيب ماهر ، ونهر جار ، وقاض عادل ، وعالم عامل ، وسوق قائم .... " .

ويـــردف صاحب هذا الكتاب قوله ذاك بوصف أبناء فاس : " فلاعتداله اعـــتدل أهلـــه ، فسلموا من شقرة الروم ، وسواد الحبش ، وغلظ الترك ، وجفاء أهـــل الجِبـــال ، ودمامة أهل الصين ، وكما اعتدلوا فى الخلق واعتدلوا فى الفطنة والذكاء والعلم .... ، .

فلهذه القيمة التاريخية للمدينة ، وحفاظا على تراثها العربى الأصيل ، نرى أن فـــاس كانت نموذج المدينة الإسلامية فى مهرجان العالم الإسلامى الذى عقد فى لندن فى منتصف السبعينات. وقررت منظمة اليونسكو المشاركة فى إنقاذها كجزء مـــن التراث الإنسانى. ورصدت من أجل إنقاذها ٢٠ مليار دولار . كما وجهت نداء عالمياً يلح فى العمل على إنقاذها .

والآن ... مـــاذا يقول التاريخ فى صدد هذه المدينة تأسيساً وتخطيطاً ؟ يعـــزو بعض المؤرخين تأسيس مدينة فاس إلى إدريس الثانى ١٩٢ هـــ / ٨٠٨ م ، ابـــن إدريـــس الأول ١٧٢ هـــ / ١٧٥ هـــ ، اعتماداً على روايات قديمة، ولعل أول مـــن رددهـــا من جغرافى المشرق ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى [1] . ثم تـــولى تـــرديد هذه الرواية من لدن الجغرافيين . مثل ما جاء عند أبى عبيد البكرى الأندلسى، حين أورد وصفاً شاملاً لمدينة فاس . فقال : " إن هذه المدينة تتكون من مدينـــتين مختلفـــتين . ويحيط بكل منها أسوار ، كما يفصلها نهير شديد التياره وهو يسمى إحداهما "ضفة القرويين " والثانية " ضفة الأندلسيين، وتقع الأولى إلى الغرب من الثانية، كما يقرر فى وصفه هذا " أن المدينة الواقعة على ضفة الأندلسيين ، قد

---

(١) لقد جمع الأستاذ بلا شير المستشرق المعروف هذه الروايات فى مقال له بعنوان : فاس عـــند الجغـــرافيين العـــرب فى العصور الوسطى " المنشور فى مجلة : **Heuperis** هيبريس ج ، ١٨ ، سنة ١٩٣٤ م ، من صـــ ٤١ – ٤٨ .

تأســــت عام ١٩٢ هــ / ٨٠٨ م ، وأن مدينة " ضفة القرويين" قد أسست فى السنة التالية فى عهد إدريس بن إدريس " [١] .

ولقــد جــرى عــلى هــذا الوصف – من وجود مدينتين منفصلتين – جغــرافيون قدامــى . من أمثال اليعقوبى [٢] والمقدسى [٣] والإدريسى . وفى أوائل القــرن الــرابع عشر الميلادى وجدت تفاصيل أكثر عن مدينة فاس فى المصنفات الــتاريخية المغــربية، والــتى تشير إلى ما ذكره المؤرخ ابن أبى زرع مؤلف " روض القــرطاس" عن المدينة ، ونقلها عنه بعدئذ كل من الجزنائى فى " زهرة الآس " [٤]، وابن القاضى فى "جذوة الاقتباس " [٥].

وقــد أورد المستشرق ليفى بروفنسال خلاصة رواية كتاب " القرطاسى " بالإضــــافة إلى المصــنفات الــتى نقلت عنه ، مقتصراً على الجوانب المهمة فى الموضــوع [٦] ، قال : "ولد إدريس الثانى فى أوليلى ، أو على الأصح وليلة ، فى كتلة زرهون الجبلية (جبل زرهون) ، بعد وفاة أبيه إدريس الأول بشهرين، وكان

---

(١) انظر : " جزائر بنى مزعنة " طبعة Desalre الطبعة الثانية ، الجزائـــر ١٩١١م ، صــ ١١٥ . طبعة أحدث بالجزائر أيضاً ١٩١٣ م ، صــ ٢٢٦.

(٢) انظــر : " صـــفة المغرب " المأخوذة من كتاب "لهذا" لأحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكـــاتب المعروف باليعقوبى ، نشره M. J. Dr Gode طبعـــة ليدن ١٨٤٠م صــ ١٩ .

(٣) انظر : أحسن التقاسيم ، طبعة Dr Gode ليدن ١٩٠٦م صــ ٢٢٩ .

(٤) نشرها وترجمها وعلق عليها بأسم زهرة الآس ، وهى تتناول تأسيس مدينة فاس – طبعة الجزائر عام ١٩٢٣ م .

(٥) انظر : الطبعة الحجرية لهذا الكتاب فى فاس سنة ١٣٠٩ هــ .

(٦) انظر : الإسلام فى المغرب والأندلس تأليف ليفى بروفنسال ، ترجمة د ٠/ السيد محمود سالم ، د ٠/محمد صلاح الدين حلمى صــ ٧ – ١٠ .

موت أبيه حادثاً محزناً ، لوفاته مسموماً على يد رسول خاص كان قد أوفده الخليفة العباســى هارون الرشيد سنة ٩٧٥ م (٧٩١م)/١٧٧ هـــ (٧٩٣م) . وقد تولى رشـــيد عتيق إدريس الأول ورفيقه المخلص – مهمة تعليم الطفل حتى كبر ، وصار حاكمـــاً سنة ١٨٨ هـــ /٧٩٣م بإجماع قبائل البربر بمراكش – ثم مات رشيد بعد هـــذا بقـــليل . وفى نهاية السنة التالية – وهى سنة ١٨٩ هـــ / ٨٠٥م – وجد إدريـــس الثانى أفواجاً من الهجرات العربية تنثال عليه ، مما جعل بعضاً من مسلمى إفـــريقية وإســـبانيا تأتى إليه لتربط مصيرها بمصيره ، حتى ضاق مقامه بوليلة عن اســـتيعاب هـــذا الـــنمو المطرد من السكان، بحيث قرر لذلك إنشاء مدينة تكون عاصمة للملكة ، وكان أن وجد فى سنة ١٩٠ هـــ / ٨٠٦م ، مكاناً مناسباً، يقع على السفح الشمالى لجبل زلغ . وبدأ فعلاً فى بناء المدينة ، غير أن عاصفة عاتية ما لبثت أن حطمت الأساس ... والمعدات ، فوقف دولاب العمل .

وفى الســـنة الـــتالية – عند مطلع سنة ١٩١ هـــ /نوفمبر ٨٠٦ م – قرر إدريس الثانى الاستقرار بجوار الضفة اليسرى لنهر سبو **Sebou** على مقربة مباشرة من ينابيع خولان – الساخنة ، حيث استحضر المواد اللازمة للعمل، غير أن مخاوفة من عواقب الفيضانات الفصلية للنهر أجبرته على إهمال مشروعه .

أمـــا المحاولـــة الثالثة فإنها ستكون أوفر حظاً ، إذ يختار للمدينة أرضاً مغطاة بأعشـــاب جافة متشابكة ومغمورة بالمياة الجارية، ويعبرها نهير تغذيه ينابيع مجاورة . وهذا الموقع لحظة عمير وزير إدريس الثانى واقترحه عليه ، وكان قد أشتراه المحتلون من بربر زناته المنتمين إلى أحزاب منافسة، والمعتنقين للإسلام والمسيحية واليهودية، وحتى لمذهب عبادة النار نفسه . ثم يأتى إدريس الثانى نفسه ليستقر فى هذا المكان. بل ويصدر الأمر ببدء إنشاء المدينة على التحقيق فى أول أيام شهر ربيع الأول سنة ١٩٢ هـــــ / ٤ يـــناير ٨١٨م ، حيث يشرع فى بناء حى تخترقه ستة أبواب على

الأرض الواقعة على الضفة اليمنى من النهير. أما فى الداخل فيبنى مسجداً بجانب الآبار على مقربة من معسكر إدريس الذى يحميه سور من خشب، وقد أصبح هذا الحى أحد أحياء المدينة ، وسمى بأسم "حى الأندلسيين " .

بعد ذلك بعام على التحقيق – بحسب التوقيت الهجرى ، الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٨م – شرع إدريس الثانى فى تشييد حى جديد مواجه للحى الأول وقد أدى إنشاء هذا الحى إلى إغلاق أسواره لجزء صغير من مجرى النهير، كما أدى إلى امتداده بشكل ملحوظ على الضفة اليسرى من هذا النهير. ذلك الحى من المدينة هو الذى سوف يطلق عليه أسم " حى القرويين" الذى كان يشبه الحى المقابل له إقامة ستة أبواب أيضاً . أما فى داخله فنجد الحاكم يأمر ببناء مسجد ما لبث أن أقيمت حوله أسواق وقيسارية وقصر .

ثم لا يلبث هذا الإنشاء المزدوج الذى قام به إدريس الثانى إلا قليلاً حتى يمتلىء بالسكان بسرعة ظاهرة. وذلك بفضل التسهيلات العديدة التى منحها الأمير من وفدوا للإقامة فيه . وإن كان معظم النازحين إلى المدينة الشرقية من البربر . فى حين أن أكثر الوافدين إلى المدينة الغربية من العرب. وبسرعة كبيرة تحتفظ بهؤلاء المسلمين وبطائفة ملحوظة من اليهود . ويأخذ هذا التجمع أسم مدينة فاس ، ويستقر فيها مع الأمير أسرته وحاشيته. ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ، وظل بها إلى سنة ١٨٧ هـ (٨١٢م – ٨١٣م) ، ثم رحل بعد ذلك فى حملة إلى الأطلس الكبرى عاد بعدها إلى مدينة فاس.ثم غادرها سنة١٩٩هـ (٨١٤م – ٨١٥م) متجهاً إلى تلمسان. وبعد هذا بثلاث سنوات عاد إلى عاصمته، التى استقبلت فى ذلك الحين حملة قوية من عساكر الأندلس ، ممن طردهم الحكم الأول أمير قرطبة الأموى ، وذلك عقب موقعة الربض ، وسمح لهم إدريس الثانى بالقرار فى الحى الشرقى ، ومنذ ذلك الوقت لم يبرح إدريس مدينة فاس .

بعــد هذا بعشرة أعوام – فى سنة ٢١٣ هــ / ٨٢٨م – مات إدريس فى ظــروف غامضة فى فاس نفسها، أو فى وليلة ، تاركاً مدينته المزودة يانعة مزدهرة، كمــا ترك عند وفاته أطفالاً كثيرين، كان منهم على الأقل إثنا عشر ولداً تقاسموا أملاكه .

ويعــترف ليفى بروفنسال فى سياق هذا الحديث عن مدينة فاس، بأن رواية صــاحب "القرطاس" قد اشتملت على تفاصيل كثيرة عن كل مرحلة من مراحل إنشــاء المديــنة المزدوجة، وأن هذا المصدر ذو قيمة نادرة بين المصادر الأخرى فى الموضــوع، حيث ضم المعلومات الطبوغرافية فيما يتصل بتخطيط الحيين وأبوابهما، وهــى معــلومات تكاد فريدة فى بابها إذا ما أضفنا إليها روايات البكرى التى الحنا إليهــا ، ولهذه المعلومات قيمتها التاريخية أيضاً عند القيام بالموازنة بين خريطة فاس الحالية بنظائرها التى كانت لنفس الموقع طوال القرون الأولى من التاريخ الإسلامى.

كذلــك يضيف صاحب "القرطاس" إلى ما سبق أن مدينة فاس قد نمت من بعــد وترعرعت بحركة العمران والمرافق التى استلزمت ذلك، ولكن الحيين اللذين اشــتملت عــليهما المديــنة كان لكل منهما مصير لا يواكب مصير الأخر . نظراً للأضــطراب الذى سادهما على مر التاريخ ، فهما تارة متضادان، وتارة متفقان ، حــتى عــــدت السنون وجاء زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين (٤٠٠ هــ – ٥٠٠هــ) ليحطم الحواجز التى تفصلهما ، ويوحدهما بصفة نهائية فى مدينة واحدة عام ٤٦٢ هــ / ١٠٦٩م . ومنذ ذلك الحين بدأت تستقر هذه المدينة الكبرى فى العصــور الوســطى، التى لم تلبث أن أصبحت مركز الإسلام فى المغرب الأقصى بمواردها العلمية والصناعية والتجارية.

وتجــدر الإشــارة إلى أن ضفة القرويين هى (مدينة القرويين) الضاحية التى عمــرها ســكان المغــرب الأدنى الذين وفدوا من القيروان، وحيث بنى بها جامع

القــرويين الذى أسسته السيدة فاطمة الفهرية، وستخصص له حديثاً يليق بماله من أثر إسلامى عظيم .

ولقــد تضــاءل من فاس السياسى فى عصر كل من المرابطين والموحدين، حيـــث أتخذ هؤلاء من مراكش عاصمة لهم حتى أتى بنو مرين فأعادوا لفاس مجدها الإدارى وأتخذوها عاصمة لهم .

وإلى جـــوار فـــاس القديمة توجد فاس الجديدة التى بناها الأمير أبو يوسف يعقـــوب بن عبد الحق المرينى عام ٦٧٤ هـــ / ١٢٧٥ م ، وقد أطلقت عليها عدة أسماء كالمدينة البيضاء ، والبلد الجديد، والمدينة الجديدة.

إن فـــاس منذ القديم تحتل مكانة مرموقة من بين مدن المغرب لما ذكرنا، من أتخاذهـــا عاصـــمة للمـــلكة فترات من الزمن . وعلى الصعيد الإسلامى فإنها تمثل واحدة من المدن الثقافية الإسلامية، لما اشتملت عليه من جامعة عريقة وهى "جامعة القرويين" كما سنفصل القول بعدئذ .

مـــن أثارهـــا القديمـــة – على جانب القرويين – مدرسة أبى عنان المرينى ، وســـاعتها الشمســـية الغـــربية، ومدرسة العطارين، ومدرسة المصباحية، ومسجد الأندلس ، وزاوية إدريس الثانى مؤسس المدينة حيث يوجد ضريحه ، وكلها منشآت على الطراز الأندلسى المغربى كأروع أثار فنية ما زالت تحتفظ بروائها .

وتتصـــل فـــاس القديمة بفاس الجديد عبر حدائق أبو الجنود والغناء، وتعتبر أبـــواب فـــاس الجديـــد غريبة الشكل. كباب الشاكمة، وباب الدكاكين، وباب المعمـــارين، وتوجـــد قبور المرينيين على مرتفع يشرف على المدينة الواقعة فى سفح جبـــل أخاذ ، فى جوف صدفة من الأسوار العتيقة، وقد دفن بالمدينة – وخاصة فى أطـــرافها – كـــثير مـــن علمائها البارزين وقوادها المشهورين. بالإضافة إلى بعض

اللاجـــئين السياسيين أمثال لسان الدين ابن الخطيب التلمسانى المعروف ٧١٣هـــ – ٧٧٦ هــ ، والذى وصف فاس بقوله :

رعى الله قطراً ينبت الغنى

وأفاقة ظل على الدين ممدود

نعـــم العـــربى الأســـود بنى مرين ، ودار العبادة التى يشهد بها مطرح الجنة ومسجد الصابرين [١] .

أم القرى ، ومأم السرى ، وموقد نار الوغى ونـــار القرى، ومقر العز الذى لا يهضم، وكرسى الخلافة الأعظم، والجرية التى شقها ثعبان الوادى فما ارتاعت، والأبية التى ما أذعنت إذعانها للإيالة المرينية ولا أطاعت.

أى كلف وكلف ، ومتفق ومختلف، ومحاباة وزلف وقضيم وعلف ، وخلف عن سلف ، إنما الدنيا أو دلف [٢].

---

(١) مسجد الصابرين : أحد معالم فاس الإسلامية ، راجـــــــع : مجلة البحث العلمى ، (لسنة ١٢ – العدد ٢٤) يناير – أبريل ١٩٧٦ .

(٢) أبـــو دلف : هو أبو القاسم عيسى بن إدريس العجلى أمير الكرخ وسيد الرمة، وأحد الأجـــواد من الشعراء كان من رجال الرشيد وأبنه المأمون وقد عقد لـــه الكـــاتب ابـــن طيفور جزاءاً خاصاً من كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية) عنـــــد حديث عـــن المـــأمون وقد توفى أبو دلف عام ٢٢٦ هـــ والشطر المذكور اقتباس من قوله :

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مغزاه ومختصـــره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

ســألت عن العالم الثانى [1]، ومحراب السبع المثانى، ومغنى المغانى ، ومرقص النــادب والغــانى، وإرم المــبانى [2]، ومصلى القاصى والدانى ، هى الحشر الأول والقطب الذى عليه المعول، والكتاب الذى لا يتأول .

بــلد المــدارك والمدارس، والمشايخ والفهارس، وديوان الراجل والفارس ، والــباب الجامع من موطأ المرافق ، ولواء الملك الخافق، وتنور الماء الدافق، ومحشر المؤمــن والمــنافق، وسوق الكاسد والنافق ، حيث البنى التى نظر إليها عطارد[3] فاســتجناها، وخــاف عــليها الوجــود أن يصيبها بعينه الحسود، فسترها بالغور وأخفاها[4]، والأسواق التى ثمرات كل شيء إليها قد جبيت، والموارد التى اختصت بالخضــر وحبيت، والمنازة المخطوبة ، وصفاح الخلج المشطوبة، والغدر التى منهــا أبو طوية[5] .

بلد أعارته الحمامة طوقهـــــا
وكساه – ريش جناحه – الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامــــــــة
وكأن ســاحــات الديار كئوس[6]

---

(١) ويقصد بالعالم الأول " الأندلس " يومئذ .

(٢) إرم المبانى : علم المبانى .

(٣) عطارد : نجم سيار قريب من الشمس .

(٤) التعبير كتابة عن موقع المدينة فى السفح المنخفض ، وهو حسن تعليل رائع لوقاية المدينة من عين الحسود بموقعها هكذا .

(٥) أبو طوبة : الريح الطيبة .

(٦) البيتان من قصيدة للشاعر ابن اللبانة يصف فيها جزيرة ميورقة .

أجـــتمع بهـــا مـــا أولده سامٍ وحام ، وعظم الالتئام والالتحام، فلا يعدم فى مسالكها زحام، فأحجارها طاحنة ، ومخابـــــــــرها شاحنة، وألسنتها — باللغات المختـــلفة — لا حنة ، ومكاتبها مائجة ، ورحابها متمائجة ، وأوقاتها جارية ، اللمم فيها — إلى الحسنات وأضدادها — متبارية ، إلى أخر ما وصفها به ... [1] .

جامع القرويين

يـــروى المؤرخون أن هذا المسجد كان فى الأصل جامعاً صغيراً يطلق عليه " جـــامع الشـــرف " وقد إقامه إدريس الثانى إبان حكمه فى " عدوة القرويين" وظل المسجد الصغير على حاله حتى عام ٢٥٤ هـــ. حيث كان فى فاس رجل من عرب القـــيروان يدعـــى محمد بن عبد الله الفهرى ، ثم وافته منيته ، وترك لابنتيه فاطمة ومريم ثروة كبيرة، فأهتمت فاطمة بجامع الشرفاء، وأنفقت جل نصيبها — من تركة والدهـــــا — فى تجديد بنائه وتوسعته، فتضاعف حجمه، وأقيمت له الصومعة التى مـــا تزال على حالها من التخطيط حتى يومنا هذا ، بعد أن أعيد بناؤها على نفس الطـــراز عـــندما جرى توسيع الجامع عام ٣٤٤ هـــ وتبلغ مساحة كل ضلع من أضلاع قاعدتها خمسة أمتار، بينما يبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً ، وهى مكسوة بالقيشانى (الزليج) تعلوها قبة صغيرة .

يقـــول عبد الرحمن المراكشى فى شأن المدينة والمسجد، منوها فيهما بحضارة قرطـــبة والقـــيروان — حيـــث سكنها القرطبيون (أهل الربض) كما قدم إليها فى مرحلة أخرى جماعة من القيروان واقاموا بها .

---

[1] انظر : معيار الأختيار ، فى ذكر المعاهد والدياره ، لابن الخطيب تحقيق ودراسة وترجمة للإسبانية صـــ ٧٨ — ٨١ نشر المعهد الجامعى للبحث العلمى ، الرباط ١٩٧٧ م .

مدينــة فــاس هــى حاضرة المغرب ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القــيروان وعــلم قرطبة، عندما كانت قرطبة حاضرة الأندلس والقيروان حاضرة المغــرب ، فــلما أضطرب أمر القيروان وأمر قرطبة رحل عن هذه وهذه من كان فيهمــا – مــن العلماء والفضلاء فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس ... ومــازلت تســمع المشايخ يد عونها "بغداد المعرب" وليس بالمغرب شيء إلا وهو منســوب غــليها، وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ... " .

يشــتمل المسجد حالياً على صحن مغطى مقوف يرتكز على أعمدة تعدادها ثلاثمائــة وخمسة وستون بعدد أيام السنة. تزينها الأقواس ذات الإشكال المختلفة. فبعضــها ذات عقد واحد بينما البعض الآخر متضاعف العقود . وتوجد عند القبة الــرابعة أقدم لوحة فى الجامع إذ يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثالث الهجرى . وقد سجل عليها أن السيدة فاطمة الفهرية تطوعت ببناء الجامع ، وأن الأساس قد حفر فى أول رمضان سنة ٢٤٥ هــ .

وهناك لوحة أخرى بين افريز القبة المربعة. قد نقشت عليها الوثيقة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمــر بعملــه عــن أمر الملك العادل ، الآمر بالخير والفضــل ، أمير المسلمين، وناصر الدين ، على بن يوسف بن تاشفين ... وكان إتمــام ذلــك – بحمد الله وعونه وتوفيقه – فى شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وثلاثــين وخمسمائة، ومعنى هذا أنه قد أضيفت على المسجد زيادات هامة وكبيرة بين عامى ٥٢٨ هــ و٥٣٩ هــ وصنع للجامع محراب ومنبر جديدان وكما أعيد بــناء الأبواب التى تعتبر تحفة فنية رائعة، فقد كسيت الأبواب الخشبية بالنحاس ، وأقــيم على كل باب قبة صغيرة، ولكل باب من هذه الأبواب الثمانية عشر مقرع

ذو حـــلقة معدنيـــة كـــبيرة. وتـــزين واجهة الأبواب صفوف من المسامير ذوات الرؤوس.

هذا ، ويتوفر المسجد على خمسة مصادر للمياة، ومنذ القدم والمياة تجرى فى الجامع طوال العام . كما نعمه فى كافة أرجائه الإنارة الكافية، فقد كانت تكثر فيه السـرج، وتغـلظ الفتائل ، لأن فى الإضاءة بهاء للدين ، وأنا للمجتهدين ، ونفيا لمكانية الريبة، وهداية للسابلة، وتنزيها، لبيوت الله من وحشة الظلام .

ولذلـك ترى فى صحن الجامع الثريات الكبيرة التى تتفرق فى كافة أرجاء المسـجد، وفى الوسـط ثـريا ضخمة وإلى جانبها ثريا أصغر، يروى أنها كانت فى الأصـل ناقوسـاً حمل من إحدى المعارك التى جرت فى الأندلس، وكسى الجرس بثلاث حـاملات للقناديل، ونقش عليه ، صلى الله على سيدنا محمد . . . الملك لله . . . والعـزة لله . . . وبالمسجد بعض من الأجراس الأخرى التى حولت إلى ثريات وكانت قد نزعت – بأيدى الجنود المسلمين – من أعالى الكنائس القشتالية شمال الأندلس .

ويلاحظ أن منبر المسجد قد صنع من خشب الصندل والأبنوس والجوز. وأن نقوشة مطعمة بالعاج، وبجوانبه زخارف وتوريقات نخلية دقيقة، وهو كغيرة من معظـم المنابر المغربية – متحرك ، يخرج عند الخطبة فى يوم الجمعة ، ثم يعود ، بعد ذلك ويختفى داخل الجدران طيلة الأسبوع .

هـذا ومـا أن أكتمل بناء الجامع فيما مضى حتى بدأ يؤدى رسالته، إلى جـانب المساجد الكثيرة التى تغطى بها مدينة فاس، من حيث كونها مراكز لتثقيف المسـلمين، وتبصيرها بأمور دينهم ودنياهم شأن معظم مساجد المدن الإسلامية فى المشـرق والمغرب ، والتى لم تكن وظيفتها قاصرة على العبادة ليس إلاء بل تكوين المسلم الصالح تكوينا شاملاً للعبادات والمعاملات .

وطبيعى أنه لم يكن فى الحسبان عند إنشاء هذا المسجد أنه سيكون له شأن عظـيم ، وأنـه سيصير بمرور الأيام سجلا علمياً حافلاً لأعداد من العلماء المغاربة وسواهم من الوافدين من عدة أقطار لينهلوا من ينابيع المعروفة ولا سيما من القارة الإفريقية بحكم صلة الجوار والقربى .

وتمضى فترة على افتتاح جامع القرويين ، ويعمر بالمؤمنين لأداء الصلوات شـيئاً فشـيئاً ، ثم أخـذت الدروس الدينية طريقها إليه بفضل طائفة من العلماء والأسـاتذة أثناء النهار وبين العشاءين ، وذلك فى علوم التفسير والحديث والفقه، وكذا علوم اللغة العربية، فهكذا استدارت الحلقات العلمية للدروس فى هذه المواد. وأضـحى المسـجد مـنذ ذلك الحين مركزاً علمياً بارزاً بحيث استقطب العلماء والطـلاب من معظم مساجد المغرب، حتى صارت له القيادة فى هذا الميدان العلمى والثقافى .

ولقـد حظـى هذا المسجد العلمى بعناية ملوك المغرب الذين توالوا على الحكام فقد اضافوا غليه فى بناياته ووسعوا فى أرجائه، وذلك تمشياً مع تطور رسالته ونموهـا، ولم تـبخل دولـة — من الدول التى حكمت المغرب — عليه فى إمداده بالوسـائل الكفيلة بمواصلة رسالته العلمية السامية، ومن ذلك إلحاق خزانة متسعة ضمن العديد من الكتب العلمية، تتصدرها المئات من المخطوطات الثقافية، لعصور توالت ودول انتفضت بين المغرب والأندلس، فى شتى فنون المعرفة ، بحيث أضحت هذه الخزانة فى مجال المخطوطات —كماً وكيفاً— من بين أمهات الخزائن فى العالم .

وتروى المؤرخات المغربية خاصة أن قاضى القضاة بفاس كان يتولى إدارة شـئونها بحكـم أنـه كان بمثابة شيخ الجامع الأكبر، فقد كان يشرف على اختيار الأسـاتذة ، ووضع الشروط الواجب توافرها، فى راغبى الدراسة من الطلبة، كما يحـدد المـواد الدراسية، والمؤلفات العلمية التى هى مادة التدريس ، بالإضافة على

إشـــرافه على منح الإجازات العلمية بالاتفاق مع العلماء المختصين، وتلقيه العطايا مادية وعلمية، للأنفاق على العلماء والطلبة .

لقـــد كان مسجد القرويين ملتقى فكرياً لعديد من الشيوخ الفقهاء الذين عاصروا المراحل الأولى من تاريخه، حيث كانوا يمارسون مهمة الوعظ والإرشاد لا يبـــتغون مـــن وراء ذلـــك سوى الأجر والثواب عند ربهم، بالإضافة على بعض الـــدروس العلمية أحياناً، وهكذا أضحى المسجد فى العصور المتوالية يمح بكثير من العـــلماء المرموقين من داخل المغرب ومن الأقطار الإسلامية المجاورة خاصة، حبا فى العلم والتدريس، واستجابة لرغبة بعض ملوك المغرب، الذين مدوا يد العون لهؤلاء العلماء، لا سيما فى الوقت الذى كانت فيه مدينة فاس العاصمة الإداريـــــــــة (عصر المرينيين) وحيث تهيأت للفقهاء الوافدين وسائل الإقامة إلى جوار القرويين ، فأضـــحوا متفرغين للاشتغال بالعلم والتدريس، وعملوا على رقى النهضة الثقافية بالمغرب، مما كان فى أثر واضح فى ازهار جامع القرويين والارتقاء بمستواه التعليمى.

ولم تكـــن عـــناية أولى الأمـــر بالمغرب نحو القرويين قاصرة على الفقهاء والمدرســـين سواء – منهم المغاربة أو الوافدين ... بل شملت هذه العناية – كما أشـــرنا – طـــلاب العـــلم المواطـــنين والقادمين من الأقطار الإسلامية، وكان من الضـــرورى بالـــتالى – وقد تضاعفت أعدادهم بمرور السنين – أن تهيأ لهم اسباب المعيشـــة ووسائل الدرس والتحصيل . وقد كان توفير السكنى لهم قرب الجامع من أهـــم ما كان يشغل بال القائمين على الأمور العلمية بفاس . وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية بفاس ، وهكذا بدأت فكرة إنشاء المدارس العلمية المشتملة عـــلى دور السكنى فى الأحياء القريبة من القرويين منذ عصر المرابطين . ففى عام ٦٧٠ هـــ أسســـت مدرســـة الحلفاويين . وفى عام ٧٢٣ هـــ أنشئت مدرسة العطـــارين ، ثم المدرسة المصباحية عام ٧٤٥ هـــ ، والمدرسة العنانية . أما فى المدن

المغــربية الأخرى فقد أقيمت مدرسة ابن يوسف بمراكش فى عهد المرابطين وكانت هــذه المــدارس فى مجموعهــا تشتمل على الخزانات العلمية التى تجمع العديد من المراجع والمصادر فى مختلف العلوم .

نظام الدراســة

لم تكــن الدراسة فى القرويين فى بداية عهودها ذات نظم معينة أو شعب متخصصــة، بــل كــانت تتناول سائر الفنون المعروفة يومئذ، ومعظم العلوم التى تتــناولها الكــليات الجامعيــة اليوم . وبالتالى فقد كانت تدرس بها العلوم اللغوية والأدبيــة، والعــلوم الإنســانية، والعــلوم الرياضية والطبيعية، ولكن الدراسات الإســلامية هــى الــتى كانت تحتص بقدر أكبر، وتحظى بأهتمام أعظم، كالتفسير وعــلومه، والحديــث وعلومه ، وأصول التشريع الإسلامى ، وعلوم فقه المذهب المالكى، مع اعتماد المؤلفات الأصلية والمشهورة فى المغرب والمشرق .

وعندما يلتحق الطالب بهذه الجامعة فإنه كان عليه أن يدرس عدة سنوات قــد تصــل عــلى عشــر أو أكــثر ، يلازم فيها تلقى العلم على مختلف العلماء المتخصصــين ، وخلالهــذه الدراسة يتعرف الأساتذة على طلابهم النابغين ، الأمر الــذى يخولهــم — بعــد فترة من الوقت يختبرون خلالها معلوماتهم — أن يمنحوهم الإجــازات العــلمية طبقاً لتبريزهم وتفوقهم، ويقام حفل خاص توزع خلاله تلك الإجــازات الــتى تجيز لهم حق التدريس أو شغل الوظائف الرسمية كالقضاء .. والعدالــة .. وأحياناً بعض المناصب الرئيسية كالوزارة .. أو السفارة ، حسب الاستعدادات والخبرات العامة فوق الحصول على الإجازة العلمية .

أمــا الطلبة الوافدون من الأقطار الإسلامية الأخرى، فإنهم بحصولهم على تلك الإجازة يصبحون فى وضع يمكنهم من أداء واجبهم نحو أوطانهم، فيعودون إلى بلادهم لنشر الدين وتقلد الوظائف التى تناط بهم فى حدود إمكانياتهم العلمية .

وتجدر الإشارة – بهذه المناسبة – إلى أن جامعة القرويين تضم خزانة علمية كبرى، بحيث تغطى احتياجات العلماء والمدرسين، وتواكب النمو العلمى للطلاب والباحــثين، من مصادر رئيسية هامة، ومراجع فى شتى ألوان المعرفة، ولاشك فى أن العناية التى كان يوليها ملوك المغرب للقرويين كانت تتناول – بطبيعة الحال – تلك الخــزانة التى أوقف عليها هؤلاء الملوك ووزرائهم العديد من الكتب ، إلى جــانب مــا كــان يجــلب مــن هذه المصادر من بلاد العالم، حتى غصت الخزانة بآلاف المخطوطات النفيسة التى يقل نظير بعضها فى المكتبات الوطنية فى الخارج، حتى قيل إن تعــداد هــذه الكــتب يكاد يبلغ ثلاثين ألفاً بين علوم وفنون وآداب لمختلف المؤلفين فى العصور الإسلامية.

من تقاليد القرويين

إن طــريقة الدرس والبحث فى ساحة القرويين تتميز ببعض الخصائص ، وذلك فيما يتصل بطريقة تلقى الدروس ، حيث كانت تعقد الحلقات الدراسية من حول الأستاذ الذى يعلوها بمنصة خاصة ، وفيها يطلب من بعض تلاميذه أن يفتتح الــدرس بالبسملة، ثم قراءة النص المراد شرحه فى المادة ، وبعدها يبدأ الأستاذ فى الشرح ، وأخيراً يطلب من أحد التلاميذ قراءة ما ورد من نص فى الكتاب المقرر .

وخلال هذه القراءة يستطرد الأستاذ مع الطلاب بالتعليق والتوضيح أيضاً، والاستشكال فى بعض المواطن أحياناً، وتلك هى الطريقة التى كان يسير عليها "الجامع الأزهر " فى تلك العصور وهى الطريقة المثلى لهضم المادة والأتيان على جوانب البحث فيها ، بما يعمق المعرفة ويؤصلها لدى طالب العلم .

وهكذا يبدو كيف استوفى جامع القرويين أسباب نموه وازدهاره، وأستكمل رسائل نهضته منذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصة منذ عهد مبكر ، وأثناء فترات متتالية، ومراحل متواصلة، وخاصة منذ عهد الدولة المرينية ، حيث توافرت له عناصر الجامعة، وثبتت له الصفة الجامعية، وتحققت له الشخصية المعنوية ، وأصبح معها مؤسسة علمية أكاديمية، تذكر فى المشرق وغيره من البلاد كما تذكر فى المغرب ، وتضاهى مثيلاتها من الجامعات الإسلامية المشهورة .

وأستمرت جامعة القرويين عامرة تواصل سيرها الحثيث ، متخطية كل الصعاب ومتحدية كل العقبات، تؤدى رسالتها العلمية والحضارية من جيل إلى جيل، محافظة بذلك على التراث الإسلامى، وأصالة الأمة المغربية، فانجبت العلماء الأفذاذ والشيوخ الكبار الذين علموا وكتبوا ودرسوا وألفوا ممن تزخر بهم كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله، وتذكرهم الأجيال الماضية والحاضرة، وتخلدهم مؤلفاتهم القيمة ، التى كانت وما تزال أهم المصادر والمراجع فى البحوث والدراسات الإسلامية [1].

---

[1] منهل جامعة القرويين : إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب (١٩٧٦ م) .

جامعة القرويين حديثاً

حظيت هذه الجامعة ضمن قطاع التعليم فى المغرب بعناية أولى الأمر ، لتكتسب مظاهر واضحة التقاليد ، ولتبرز لها خصائصها الجامعية بما يواكب حضارة العصر الحديث جهد الطاقة وقدر الاستطاعة، وقد كان أبرز مظاهر التطوير والتجديد هو التنظيم الذى أدخل على سير الدروس لتلائم فى مجموعها مستويات الطلاب عامة، وهكذا نرى السلطان المولى محمد بن عبد الله، الذى أصدر منشوراً عام ٢٩٣ هـ / ١٧٨٩ م ، فى صدد هذه الجامعة ، وخصص لتدريس كتب معينة بها وتقرير مواد خاصة للدراسة، ثم تلاه السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام، الذى وجه خطاباً بتاريخ ١٢ محرم ١٢٦١ هـ إلى قاضى القضاة بفاس وفيه يشير عليه بأن يوجه أنظار المدرسين بالقرويين إلى أن يعملوا ما فى وسعهم لمصلحة الطلاب ، وتيسير مهمتهم العلمية .

أما السلطان المولى يوسف فقد طلب من العلماء فى رمضان ١٣٣٠ هـ (سبتمبر ١٩١٢ م) عقب توليه السلطة أن يعدوا له تقريراً حول إضافة بعض المواد فى الدراسة، كما أمر بتأسيس " مجلس علمى " توكل إليه أمور الجامعة ، ويضم طائفة من علماء القرويين المتمرسين بالشئون العلمية والإدارية.

وفى ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٣ هـ (١٩١٥/٤/٥م) وبعد سنة من تأسيس المجلس العلمى وردت رسالة مخزنية تحمل الأمر بجعل الانخراط فى صفوف العلماء متوقفاً على النجاح فى الامتحانات واجتياز مباراة .

وفى ١٦ ربيع الثانى ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧/١٠/١٣م) صدر ظهير يفيد أن رواتب العلماء قد زيد فيها، وأنه قد تأسس بالرباط مجلس أعلى برئاسة السلطان المولى يوسف، وعضوية الصدر الأعظم، ووزير العدلية والأوقاف

والحـــاجب، وتقضى بتعيين أمين ورقيب ، وكان يعد المجلس بمثابة هيئة عليا تراقب المجلس العلمى بفاس [(١)].

وهكذا ... واصلت جامعة القرويين رسالتها فى حدود الإمكانيات التى أتاحتها لها الظروف المعاصرة، وخاصة فى مرحلة الاستعمار الأجنبى ، إلى أن قيض الله لهـــذه الـــبلاد أن تـــنال استقلالها عام ١٩٥٦ م بقيادة الملك محمد الخامس ، والذى رأى أن يعيد النظر فى شئون الدراسة بجامعة القرويين، بحيث تستقطب أكبر عدد من طلاب العلم من الداخل والخارج ، ولتسير الجامعة وفق مقتضيات العصر الحاضـــر ، على أسس منهجية فى دراستها، وحتى تنتهى تلك الدراسات بمؤهلات علمية تتعادل مع مؤهلات الجامعات المناظرة، ليمكن لخريجها أن يشقوا طريقهم إلى الوظائف المناسبة فى الدولة .

مراحل التطوير للجامعة قبل الاستقلال

وفى هـــذا الصـــدد صدرت عدة ظهائر وقرارات تتعلق بإدخال التنظيم الجديد على جامعة القرويين .

١ - ففـــى ٢٦ ذى الحجـــة ١٣٤٨ هـــ (٢٥ مايو ١٩٣٠ م) صدر ظهير شريف يعين المدرسين، ويرتبهم ثلاث مراتب وينفذ لهم رواتبهم .

٢ - وفى ١٠ ذى القعـــدة ١٣٤٦ هـــــ (٢٦ مارس ١٩٣١ م) صدر ظهير شـــريف ، يســـند تعيين الفنون والعلوم المدروسة والتأليف التى تدرس بها للمجـــلس الأعـــلى، إلى جانب من ضابط بتنظيم التعليم ، وتحسين طرقه بالقرويين .

---

(١) منهل جامعة القرويين - إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

٣ – وفى ١٠ ذى الحجـــة ١٣٤٢ هـــ (١٤ مايو ١٩٣١ م) فتحت إدارة المجــلس العلمى أبوابها فى وجه الطلاب الذين يريدون الانخراط فى النظام، ودشنت الدروس النظامية فى ٨ شوال ١٣٥٠هـــ (١٦ فبراير١٩٣١م) .

٤ – وفى ١٠ ذى الحجـــة ١٣٥١ هــ (٣١ مارس ١٩٣٣ م) صدر الضابط المسنون فى أحد عشر فصلاً ، يتضمن تقسيم الدراسة إلى ثلاث مراحل :

أ – ابتدائية ، ومدها ثلاث سنوات .

ب – ثانوية ، ومدها ست سنوات .

ج – عاليـــة ، ومدهـــا ثـــلاث سنوات ، وتحتوى على شعبتين شرعية، وأدبيـــة ، وتنـــتهى بتخويل المتخرج شهادة " العالمية" وهى أعلا شهادة كانت تمنحها جامعة القرويين .

" كما نص هذا الظهير على تحديد المواد المدروسة، وتعيين الكتب المقررة، وعـــلى الزيادة فى عدد العلماء المدرسين. ورفع رواتبهم، وتحديد مهمة المراتب ، والحفـــل الأسبوعية والفصلية ، ونظام الامتحانات، والوظائف التى تخولها مختلف الشـــهادات، إلى غـــير ذلك من التنظيمات التى كانت من أعظم مكاسب جامعة القـــرويين فى عهد محمد الخامس، وأساساً للمكاسب والإصلاحات التى تمتعت بها هذه الجامعة بعد الاستقلال [١] .

وما أن أشرق فجر الحرية على البلاد، حتى حظيت القرويين بعناية خاصة من ساكن الجنان الملك محمد الخامس، حيث كان وعد بمزيد من الرعاية والاهتمام بهـــا، تقديراً منه لهذه الجامعة العتيدة، والتى حفظت للبلاد دينها الإسلامى ولغتها العـــربية فيما انصرم من العصور، وهكذا تفضل بزيارة خاصة لمسجد القرويين ،

---

[١] منهل جامعة القرويين – إصدار مديرية التعليم الأصيل بالمغرب ١٩٧٦ م .

وخطــب فى طلابها وعلمائها مشيداً بدور الجامعة الحضارى، ومؤكداً العزم على مواصـــلة إصلاحها ورعايتها، وذلك بما يكفل لها أداء رسالتها على أحسن وجه، وقد استهل هذا النظر الكريم بتأسيس لجنة عليا للسهر على إصلاح التعليم بصفة عامـــة، وجامعـــة القرويين بصفة خاصة، كما خصصت لها غدارة لرعاية شئونها بــوزارة الــتربية الوطــنية ، بحيث تشمل معاهدها الابتدائية والثانوية إلى جانب كلياتها، وخصصت لكل هذا الأبنية المناسبة ، وبذلك انتقلت الدراسة من المسجد والجوامع التابعة إلى مدارس حديثة مجهزة علمياً ، مما كان له أكبر الأثر فى النهوض بالتعليم الدينى فى المغرب الحديث .

وهـــذا وتدخل فى نطاق القرويين للتعليم العالى كليات ثلاث على النحو التـــــــالى :

١ – كلية الشـــريعة • ومقرها مدينة فاس .

٢ – كلية أصول الدين • ومقرها مدينة تطوان .

٣ – كلية اللغة العربية • ومقرها مدينة مراكش .

وقـــد نـــالت جامعة القرويين العناية اللائقة بها فى وقتنا الحاضر من لدن جلالـــة الحســـن الـــثانى ، حيث كانت فى حاجة إلى المزيد من الرعاية والاهتمام. وذلك حفاظاً على الثقافة الإسلامية، ونشراً لها فى طول البلاد وعرضها .

وفى الخطـــب السامية لجلالته ، والظهائر الملكية . والمراسيم الوزارية التى تســتهدف – الـــنهوض بجامعـــة القـــرويين ومعاهدها . وتزويدها بالإمكانيات الضـــرورية، وإعادة النظر فى برامجها ومناهجها، وتحديد الدراسات التى تختص بها كـــل كلية من كليات هذه الجامعة . مما يجدد شبابها، ويعطيها نفساً جديداً يساعد عـــلى تخريج العلماء المتضلعين فى علوم اللغة العربية، والفكر والحضارة والشريعة

الإســلامية، وعــلى بعث حركة ثقافية ونهضة علمية شاملة ، تنعكس أثارها على التكوين المتين والتثقيف، لتؤدى الجامعة رسالتها التاريخية داخل المغرب وخارجه .

التنظيم الحديث لجامعة القرويين

وفى هذا الصدد كان جلالته قد أصدر ظهيراً شريفاً بتاريخ ١٢ رمضان ١٣٨٢ هـــ (٦ فــبراير ١٩٦٣م) بإعادة تنظيم جامعة القرويين تنظيماً جديداً يتلاءم وروح العصر الحديث شكلا وتربوياً بما يحقق النهوض بهذه الجامعة. ويكتمل معــه إطارهــا العام بمختلف الكليات ، ويستجيب لتحقيق الغاية المنشودة منها ، بــتكوين عــلماء متخصصــين فى فروع العلم والمعرفة، يشغلون وظائف عامة فى الدولة، يقومون بخلق نشاط فكرى وثقافى وحركة علمية فى هذا المضمار .

وقد تضمن الظهير المذكور العناصر التى اقتضاها إصلاح الجامعة، وإعادة تنظيمها من جديد، فحدد اختصاصاتها وأهدافها ، وأعطاها صبغة المؤسسة العمومية المتمــتعة بالشخصية المعنوية، كما حدد الكليات التى تشتمل عليها الجامعة، وهيئة التســيير التى يمثلها مجلس الجامعة، ووضعية رجال التعليم بها ، واختصاصات كل كلية، والإجازات الوطنية التى تسلمها.

وقــبل أن ننهى الحديث عن جامعة القرويين يطيب لنا أن نقتطف فقرات ممــا ســطره بعض الكتاب الأوروبيين ، الذين نوهوا بالدور الثقافى والإنسانى لهذه الجامعة :

١ – فقــد كتب ديلفان فى كتابه " فاس وجامعتها" يقول : مدينة فاس دار العلم بالمغرب ، التى بها جامعة القرويين ، تعد أول مدرسة فى الدنيا .

٢ - وكـــتب المستشرق الروسى " جوزى كريستوفيتش " مقالاً ، ترجمته مجلة الهـــلال المصرية (أبريل ١٩٥٦ م) قال : فإن أقدم كلية فى العالم ليست فى أوروبـــا - كمـــا يظـــن - بـــل فى إفريقيا فى مدينة فاس ، فقد تحقق بالشـــواهد التاريخية أن هذه المدرسة كانت تسمى " جامعة القيروان " - ويقصـــد القرويين - والتى لست فى الجيل التاسع للميلاد ، وعليه ليست فقـــط أقـــدم كليات العالم ، بل هى الكلية الوحيدة التى كان يتلقى فيها الطلـــبة العـــلوم الســـامية فى تـــلك الأزمنة، حين لم يكن فكان باريس وأكســـفورد وبولونيـــا يعرفون من الكليات سوى الإسم، فكان الطلبة يـــتواردون على كلية (القرويين) من أنحاء أوروبا وبريطانيا فضلاً عن بلاد العـــرب الواسعة للأنخراط فى سلك طلابها وتلقى العلوم باللغة العربية مع الطلبة الطرابلسيين والتونسيين وغيرهم، ومن جملة من تلقى علومه - فى هـــذه المدرسة من الأوروبيين - جيربرت أو البابا سيلفستر، وهو أول من أدخل إلى أوروبا الأعداد العربية، وطريقة الأعداد المألوفة عندنا بعد أن - أتقنها جيداً . . . " .

٣ - وذكر الكاتب البريطانى روم لاند أنه : شيد فى فاس فى أيامها الأولى جامع القرويين ، الذى هو أهم جامعة وأقدمها ، وهنا كان العلماء منذ ألف سنة يعكفـــون عـــلى المـــناظرات الفلسفية والأبحاث الدينية، وكان المثقفون يدرسون التاريخ والعلوم والطب والرياضيات ، ويشرحون أرسطو وغيره من مفكرى الإغريق، وقد تطورت على نحو ما حدث فى جامعة السوربون الـــتى كـــانت أول أمرها تعطى بعض الدروس فى اللاهوت، يلقبها أحد الرهبان فى حجرة قريبة من نوترادام فى باريس، ثم اقام أحد المحسنين مترلاً

لإيـــواء الطلبـة الفقــراء، وهكـــذا كان الحال فى جامعة أوكسفورد وسلامنكاه.

فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم عملاً جديداً فى سلسلة ذخائر العرب الـتاريخية إلا وهو كتاب " زهرة الأس فى بناء مدينة فاس " المعروف بتاريخ مدينة فــاس للإمام الجزنائى المتوفى أواخر القرن الثامن الهجرى وقد أغفلته كتب التاريخ والسـير فى الترجمة له فهو مجهول المولد والوفاة . إلا أن الكتاب يحتوى على تاريخ المغـرب مـنذ الحكـم الرومانى حتى عصر المرابطين والموحدين بطريقة تبين مهارة وتفـوق الكـاتب من الناحية التاريخية والأثرية واللغوية والفقهية. فكتاب صورة مصـغرة لـتاريخ مصـر من الأمصار الإسلامية وهى مدينة فاس صاحبة الحضارة العـريقة فهـى لا تقـل أهمية عن القيروان ودمشق وبغداد بل أحياناً تفوق هذه الأمصــار فى بعـض الفترات خلال العصور التاريخية المختلفة. ومن هنا كان من الواجـب علينـا إبراز تراثنا المجهول حتى يستفيد عالمنا بعظمة الحضارة الإسلامية، فالكـتاب عبارة عن موسوعة مختصرة عن مدينة فاس على مر العصور الإسلامية، وقد اعتمدت فى إصدار وإخراج هذا العمل على عدة طبقات قديمة ومخطوطات فى دار الكـتب المصرية ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة مع وضع بعض التعليقات والتحقيقات وعمل فهارس وكشافات عامة لتسهيل على الباحثين والدارسين .

والله ولى العون والمقدرة والله خير معين ،،،،

مقدمه

مديحه الشرقاوى

١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة المؤلف



وصـــلى الله عـــلى سيدنا محمد وآله ، الحمد لله الذى جعل الحمد فاتحة الكـــتاب ، وأول كلام الخلق يوم الحساب ، وصلى الله على سيدنا محمد المنتخب من لباب الألباب والرضى عن آله وصحبه فأكرم بهم من أهل وأصحاب وبعد :

يحتوى هذا الكتاب على بابين :

الباب الأول : فى ذكر من أسسها من الأدارسة الحسنيين .

الباب الثانى : فى ذكر من أدارها بالأسوار وذكر جوامعها ومـــا إنـــتهت إليه من الدور والحمامات وما جاء من الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين .

الباب الأول

فى ذكر من
أسسها من الأدارسة الحسنيين

وهـــذا الـــباب يستدعى الكلام على فضل الإقليم وحد اصقاعه وحكم أرضه، وأول من أفتتحه وسبب قدوم ولى الله إدريس[1] ، وذكر عقبه الذين أسسوا فاساً إلى غير ذلك مما يتعلق به من التنبية عليه والتذكير بما انصاف من الأمور إليه .

أما فضله فقد روى عن سفيان بن عيينة [2]عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) هــو إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن على بن أبي طالب مؤسس دولة الأدارســـة فى المغرب وإليه نسبتها، أول ما عرف عنه أنه كان مع الحسين بن على بن الحسن المثلث فى المدينة أيام ثورته على الهادى العباسى سنة ١٦٩ هــ ثم قتل الحسين ، فانهــزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هــ ، ونزل مدينة وليلى " على مقــربة من مراكش" وكان كبيرها يومئذ إسحاق بن محمد فعرفه إدريس بنفسه فأجاره وأكرمه ثم جمع البربر على القيام بدعوته ، وخلع طاعة بنى العباس، فتم لـــــــه الأمر " يــوم الجمعة فى ٤ رمضان ١٧٢ هــ " فجمع جيشاً كثيفاً وخرج به غازياً فبلغ بلاد تادلـــة " قرب تلمسان وفاس " ففتح معاقلها وعاد إلى وليلى ثم غزا تلمسان فبايع له صـــاحبها وعظـــم أمر إدريس فأستمر إلى أن توفى مسموماً فى وليلى سنة ١٧٧ هــ . انظر الاستقصا ١/ ٦٧ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢ .

(٢) هــو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى الأعور ، أحد أئمة الإسلام، روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر وخلق. وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والفلاس. مات سنة ١٩٨ هــ .

=

أنه قال : «أن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرة أربعين خريفاً لا يغلقه الله تعالى حتى تطلع الشمس من مغربها» [1] نقله ابن الرقيق[2] . وفى المصنفات الصحاح من رواية سعد[3] بن أبي وقاص[4] وغيره أن رسول الله صلى الله علية

= انظر المزيد فى : تاريخ بغداد ٩/١٧٤ ، تذكرة الحفاظ ١/٢٦٢، حلية الأولياء ٧/ ٢٧٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٣ ، الرسالة المستطرفة ٤١ ، شذرات الذهب ١/ ٣٥٤ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٤ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٠٨ ، العبر ١/ ٣٢٦ .

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة كذلك رواه أبو داود فى سننه .

(٢) هو إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق المعروف بالرقيق أو ابن الرقيق مؤرخ أديب من أهل القيروان ، كان يلى كتابة الحضرة فى الدولة الصنهاجية، وأستمر فيها زهاء نصف قرن ورحل إلى مصر سنة ٣٨٨ هـ يحمل هدية من باديس بن زيرى إلى الحاكم، وعاد إلى وطنه فتوفى فيه على الأرجح بعد سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م . وصفة ابن رشيق صاحب العمدة " بأنه شاعر سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع غلب عليه أسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس " وقال ابن خلدون فى المقدمة : ابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدول التى كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلا مقلد ونعته ياقوت فى معجم الأدباء بالكتاب وأورد أسماء كتبه ومنها " تاريخ إفريقية والمغرب" عدة مجلدات و " كتاب النساء" و "نظم السلوك فى مسامرة الملوك " وله " قطب السرور فى وصف الأنبذة الخمور" .

انظر: معجم الأدباء ١/ ٢٨٧ ، الإعلان بالتوبيخ ١٢٢، الخطط المقريزية ١/ ٣٧٠.

(٣) وردت فى الأصل سعيد والصواب فى المتن .

(٤) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشى الزهرى أبو إسحاق الصحابى الأمير فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، وأول من رمى بسهم فى سبيل الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة. ولد سنة ٢٣ ق هـ / ٦٠٣ م ، ومات سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م . =

وسلم قال: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» [1] ومن طريق آخر « لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة وأهل المغرب فهم أهــل المغرب الذى هو ضد المشرق » [2]على أصح التاويلات وأوضح الدلالات وحقيقة المغرب هو المكان الواقع فى شق الغربى . قال أحد الشعراء

المغرب شئ مليـــــــــــــح ولى دليل عليـــــــــــــه
البدر يرقب منـــــــــــــه والشمس تجرى إليـــــــــــه

وحكى أبو الجلجل[3] فى طبقات الأطباء أن ملك اليونان كتب إلى عامله بأرض بابل[4] .

= انظــر : طبقات ابن سعد ٦/٦، الكنى والأسماء ١/١١، نكت الهميان ١٥٥/ أشهر مشــاهير الإسلام ٥٢٥ ، تهذيب ابن عساكر ٦/٩٣، حلية الأولياء ١/٩٢ ، الرياض النضرة ٢/ ٢٩٢ – ٣٠١ ، تاريخ الخميس ١/ ٤٩٩ ، تهذيب التهذيب ٣/ ٤٨٣ .

(١) رواه أبو داود والدارقطنى .

(٢) رواه الترمذى والنسائى .

(٣) نشر هذا الكتاب فى عدة طبعات .

(٤) بكسر الباء أسم الناحية منها الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر قال الأخفش : لا ينصرف لتأنيثه وذلك أن أسم كل شيء مؤنث إذا كان علماً وكان على أكثر من ثلاثة أحــرف فإنــه لا ينصرف فى المعرفة. وقال المفسرون فى قوله تعالى : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ "سورة البقرة الآية ١٠٢ " قيل بابل وقيل دبناوند. وقال أبو الحسن : بابل الكوفة . وقال أبو معشر : الكلدانيون هم الذين كانوا يترلون بابل فى الزمن الأول ويقال إن أول من سكنها نوح عليه السلام وهو أول من عمرها وكــان قــد نزلها بعقب الطوفان . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل دهقان الفلوجه عن عجائب بلادهم فقال كانت بابل سبع مدن فى كل مدينــة =

أن يبعث إليه بقراط [1] الحكيم بتبجيل وتكريم وأمره أن يدفع إليه جملة قناطير من الذهب لينقله وامتنع وما ذلك إلا لفضل إقليمه على غيره وأرض بابل من الإقليم الرابع الذى فاس منه .

وأول بـلاد المغرب على ما حكاه صاحب جغرافيا جبال برقة [2] جبال اوتان [3] فى المشرق وهذه الجبال آخر عمل مصر وأول عمل القيروان[4] وينقسم

= أعجوبة ليست فى الأخرى، قال البكرى: بابل بالعراق مدينة السحر معروفة . روى أبـو داود مـن طريق ابن وهب عن ابن لهيعة عن عمار بن سعد المرادى عن أبى صالح الغفارى أن علياً مر ببابل، فجاءه المؤذن يؤذنه بالصلاة، صلاة العصر، فلما برز منها أمر المـؤذن فأقـام ، وقـال إن حبى نهانى أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصلى ببابل فإنها مـلعونة. قال أصحاب الأخبار : بنى نمروذ الخاطى الجدل ببابل، طوله فى السماء خمسة آلاف ذراع وهو البنيان الذى ذكره الله فى كتابه فقال تعـالى : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْـلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْـثُ لَـا يَشْـعُرُونَ﴾ سورة النحل الآية ٢٦ ، قالوا : وبات الناس ولسانهم سريانى فأصبحو وقد تفرقت لغاتهم على أثنين وسبعين لساناً، وأصبح كل يبلبل بلسانه، فسمى الموضـع بابلاً، وقال الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمدانى وكان أسمه خيتارث وربما سموا العراق بابلا.

انظر : معجم البلدان ١/ ٣٠٨ – ٣١٠ ، معجم ما استعجم ١/ ٢١٨ – ٢١٩ .

(١) الطبيب اليونانى والفيلسوف له عدة مصنفات ومؤلفات.

(٢) بفتح أولـه والقاف اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية وأسم مدينتها أنطابلس .

انظر : مزيد من التفاصيل فى معجم البلدان ١/ ٣٨٨ – ٤٠١ .

(٣) له ذكر فى مختصر البلدان لابن الفقيه .

(٤) مديـنة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب إفريقية وأخربت البلاد فأنتقل أهلها عنها فليس بها اليوم إلا صعلوك لا يطمع فيه ، =

المغرب على ثلاثة أصقاع : والصقع الأول هو موضع كرسى إفريقية ثم جبال برقة واوتان إلى جبال نفوسة .

والصقع الثانى : المغرب الأوسط وأوله تاهرت[1] إلى جبل سبته إلى جبال درن [2].

والصقع الثالث : السوس الأقصى[3] وحدّه فى المغرب البحر المحيط الأعظم من ماسة إلى صحراء المرابطين .

وهذا الأقليم الرابع هو الأوسط من الأقاليم السبعة التى رسمها حكماء الهند وهو أعمرها وفيه أرض بابل وجزيرة العرب وبقية بلاد البربر فى أقصى المغرب وبعض مدن جزيرة الأندلس كإشبيلية [4] وقرطبة[5]

= وهى مدينة مصرت فى الإسلام فى أيام معاوية .

انظر : معجم البلدان ٤/ ٤٢٠ - ٤٢١ .

(١) بفتح الهاء وسكون الراء وتاء فوقها نقطتان اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت الحدثة، بينهما وبين المسيلة ست مراحل .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٧ - ٨ .

(٢) بالتحريك جبل من جبال البربر بالمغرب فيه عدة قبائل وبلدان وقرى .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٤٥٢ .

(٣) كورة مدينتها طرفلة ، ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى مسيرة شهرين .

انظر : معجم البلدان ٣/ ٢٨١

(٤) بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وباء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة كبيرة عظيمة وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره .

انظر : معجم البلدان ١/ ١٩٥ .

(٥) وهى مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بنى أمية.

انظر : معجم البلدان ٤/ ٣٢٤ - ٣٢٥ .

وغــرناطة [1] والمــرية [2] ومرسية [3] ، وفيه بغداد وبأعتادّاه أعتدلت أبدان أهله فسلموا من شغرة [4] الروم وسواد الجيش وغلط الترك وجفاء أهل الجبال ودماهة أهل الصين ، وكما أعتدلوا فى الخلقة لطفوا فى الفطنة والذكاء والعلم .

ذكر مضى ذلك صاحب المدهش وغيره وهذا الإقليم عند الحكماء كريم لبقعة طيب التربة فحصب البقعة كثير العيون والأنهار وقليل العوام ذوات السموم، معــتدل الهواء فى الفصول الأربعة على قدر متقارب من الاعتدال متوسط فى أكثر الزمان تتصل فوائده وفواكهه فى كل الأزمنة .

---

(1) بفتح أوله وسكون ثانية ثم نون وبعد الألف طاء مهملة . وهى أقدم مدن كورة البيرة مــن أعمال الأندلس وأعظمها وأحسنها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم فى القديم ويعرف الآن بنهر حداره .
انظر : معجم البلدان ٤/ ١٩٥ .

(2) بالفــتح ثم الكسر وتشديد الياء بنقطتين من تحتها ، وهى مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس .
انظر : معجم البلدان ٥/ ١١٩ .

(3) بضم أوله والسكون وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة وهاء ، مدينة بالأندلس من أعمال تدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم .
انظر : معجم البلدان ٥/ ١٠٧ .

(4) وردت فى الأصل شفرة والصواب فى المتن .

وأمـــا حكم أرضه فقال أبو الحسن القابسى[1] فى شرح موطأ[2] مالك[3] رحمه الله من كتاب الجهاد اختلف الناس فى أرض المغرب هل افتتحت عنـــــوة أو صلحاً أو مختلطة على ثلاثة أقوال :

---

(1) هـــو عـــلى بـــن محمد بن خلف المعافرى القيروانى أبو الحسن بن القابسى عالم المالكية بإفـــريقية فى عصره ، كان حافظاً للحديث وعلله ورجاله فقيهاً أصولياً أعمى، من أهل القيروان. له تصانيف منها " الممهد" كبير جداً فى الفقه وآحكام الديانات و "المنقذ من شـــبه التأويل" و "ملخص الموطأ" و " الرسالة المفضلة لأحــــوال المعلمين والمتعلمين" ولد سنة ٣٢٤ هـــ / ٩٣٦ م ومات سنة ٤٠٣هـــ/ ١٠١٢ م .

انظر : معالم الإيمان ٣/ ١٦٨ ، نكت الهميان ٢١٧ ، وفيات الأعيان ١/ ٣٣٩ .

(2) بمعنى السهل الواضح .

(3) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحى الحميرى أبـــو عـــبد الله المدنى شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة. روى عن نافع ومحمد بن المنكدر وجعفر الصادق وحميد الطويل وخلق. وعنه الشافعى وخلائق جمعهم الخطيب فى مجلد. مات بالمدينة المنورة سنة ١٧٩ هـــ .

انظر : الأنساب ورقة ٤١ م ، البداية والنهاية ١٠/١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧، تهذيـــب الأسماء ٢/ ٧٥ ، تهذيب التهذيب ١٠/٥، جمهرة الأنساب لابن حزم ٤٣٥ ، حـلية الأوليـــاء ٦/ ٣١٣ ، الديباج المذهب ١٧ ، الرسالة المستطرفة ١٣ ، شذرات الذهب ١/ ٢٨٩، صفوة الصفوة ٢/ ٩٩، طبقات ابن سعد ٥/ ٤٥ ، طبقات الفقهاء ٦٧ ، طـــبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٥ ، طبقات المفسرين للداودى ٢/ ٢٩٣، العبر ١/ ٢٧٢ ، اللباب ١/ ٥٥ ، مرآة الجنان ١/ ٣٧٣ ، مروج الذهب ٣/ ٣٥٠ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٩٦ .

الأول : الذى يظهر من رواية ابن القاسم [1]عن مالك أنها افتتحت عنوة بالسيف لأنه جعل فى المعادن النظر الإمام ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شئ منها كأرض مصر وطنجة [2] لأنها افتتحت بالسيف .

الثانى : قيل صلحاً صالح عليها أهلها فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض .

الثالث : قيل أنها مختلطة هرب بعضهم من بعض وتركوها فمن بيده شئ كان له وهو الصحيح والله أعلم .

وقال الداوودى [3] : فى كتاب الأصول لـه يمر بسط كلام فى ذلك. أما الذى يوجبه النظر فيها أن تجرى على ما توالت عليه القرون الماضية فى أخرها وتقرر فى أيدى مالكها إلا ما تدارت فيه الأخبار أنه اغتصب أو جلى عنه أهله .

---

(1) هو عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقى أبو عبد الله المصرى الفقيه، راوية المسائل عن مالك، روى عن بكر بن مضر وابن عيينة وعدة . وعنه ابنه موسى وأصبغ بن الفرج وسحنون بن سعيد. ثقة ، مات سنة ١٩١ هـ .

انظر : وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦ ، اللباب ٢/ ١٢٠ ، العبر ١/ ٣٠٧، شذرات الذهب ١/٣٢٩ ، الديباج المذهب ١٤٦ ، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٦ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٧١ .

(2) بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء .

انظر : التفاصيل فى فى معجم البلدان ٤/ ٤٣ .

(3) هو محمد بن عبد الحى بن محمد عبد الحليم الأنصارى الكنوى الهندى أبو الحسنات عالم بالحديث والتراجم من فقهاء الحنفية. ولد سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، ومات سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧ م . له عدة مصنفات منها "الآثار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة" و "الإفادة الخطيرة" فى الهيئة. و "التحقيق العجيب" فقه و " الرفع والتكميل فى الجرح والتعديل" فى رجال الحديث و "ظفر الأمانى فى مختصر الجرجانى" فى مصطلح الحديث،=

قال التادلى[1] الحافظ أن أرض المغرب أسلم عليها أهلها . ويحكى أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر[2] حين تغلب على أرض فاس قال لهم أخبرونى على أرضكم أصلح هى أم عنوة . فقالوا لا جواب عندنا حتى تأتى الفقيه يعنون أباجيدة بن أحمد[3] فجاء أبوجيدة فسأله فقال ليست بصلح ولا عنوة أنما أسلم عليها ، فقال لهم : خلصكم الرجل ، وأبوجيدة هو المدفون خارج باب بنى مسافر أحد أبواب فاس والدعاء عند قبره مستجاب وله نفع الله به كرامات من أراد

= و "مجموعة الفتاوى " مجلدان و "نفع المفتى والسائل بجميع متفرقات المسائل" فقه و "التعليق الممجد " على موطأ الإمام محمد الشيبانى، و"فرحة المدرسين بأسماء المؤلفات والمؤلفين" و " طرب الأماثا بتراجم الأفاضل " و " إنباء الخلان بأنباء علماء هندستان" .

انظر : الرسالة المستطرفة ١١٥ ، الفوائد البهية ٢٤٨ .

(١) هو عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى أبو محمد قاضى فاس ومن أعلامها كان فقيهاً أديباً مفتياً شاعراً، بطلاً من الشجعان له " رسائل " نسبته إلى تادلة من جبال البربر بالمغرب، ولد سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م ، ومات سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م بمكناسة مغرباً عن وطنه .

انظر : جذوة الاقتباس ٤ ، لسان الميزان ٣/ ٣٤٣ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى القحطانى أبو عامر المعروف بالمنصور بن أبي عامر أمير الأندلس فى دولة المؤيد الأموى وأحد الشجعان الدهاة أصله من الجزيرة الخضراء . ولد سنة ٣٢٦ هـ / ٩٣٨ م ومات سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م.

انظر : الحلة السيراء ١٤٨ ، تاريخ قضاة الأندلس ٨٠، نفح الطيب ١/ ١٨٩ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٤٧ ، الكامل فى التاريخ ٩/ ٦١ ، بغية الملتمس ١٠٥ ، الواق بالوفيات ٣/ ٣١٢ ، البيان المغرب ٢/ ٣٠١ .

(٣) ورد فى الحلة السيراء ٢٥٧ .

الوقوف عليها فيطالع كتاب المستفاد فى ذكر الصالحين من فاس والعباد الذى ألفه أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوى المعروف بالكتانى [١] .

نزول البربر بالمغرب

وأما سبب نزول البربر بأرض المغرب من أرض فلسطين فإن ملكها جالوت لما قتله داود عليه السلام جلب البربر بأرض المغرب فتفرقت فى تلك البلاد من موضع القيروان إلى ساحل البحر الأندلسى وكانت هذه البلاد قبل البربر للروم فجلت الروم قدامهم إلى صقلية وهى جزيرة عظيمة فى البحر تجازى بلاد إفريقية ثم رجع الأفارقة من الروم إلى مدائنهم على صلح من البربر إذ كرهت البربر نزول المدائن فنزلوا فى الجبال والرمال والوهاد لكونهم أصحاب إبل وبقر وغنم وسكان بيوت أدم وشعر فعادت المدن رومية والجبال والصحارى بربرية وهم يومئذ على أديان مختلفة ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم وخلافة الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه [٢] وعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه [٣]

---

(١) الثابت هو محمد بن عبد الكبير بن محمد أبو الفيض وأبو عبد الله الكتانى . انظر : معجم الشيوخ ١/ ٤٤ – ٤٩ .

(٢) انظر مزيد من التفاصيل فى : أسد الغابة ٣/ ٣٠٩ ، تاريخ الخلفاء ٢٧ ، تذكرة الحفاظ ١ / ٢ ، شذرات الذهب ١/ ٢٧ ، طبقات الفقهاء ٣٦ ، العبر ١/ ١٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٠٥ .

(٣) انظر مزيد من التفاصيل فى : اسد الغابة ٤/ ١٤٥ ، الإصابة ٢/ ٥١١، تاريخ الخلفاء ١٠٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٥ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٩، شذرات الذهب ١/ ٣٣، طبقات الفقهاء ٣٨ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩١، العبر ١/ ٢٧ ، مروج الذهب ٢/ ٣١٢ ، النجوم الزاهرة ١/ ٧٨ .

وعثمان [1] وعلى [2] رضى الله عنهما وصدر دولة بنى أمية ، ولى يزيد بن معاوية [3] عقبة بن نافع الفهرى[4] على بلاد المغرب فى سنة اثنتين وستين من الهجرة واستفتح بعضه إلى أن بلغ البحر الأعظم حيث ماسة وأدخل فيه قوائم فرسه ثم جعل يقول وعليكم السلام فقال أصحابه على من تسلم يا ولى الله ، فقال لهم أن قوم يونس عليه السلام سلموا على وسلمت عليهم ولولا البحر لأريتكم إياهم وأسلم إذ ذاك على يده بعض من بالمغرب وحين رجع منه ارتد بعض من

---

(1) انظر التفاصيل فى : أسد الغابة ٣/ ٥٨٤ ، الإصابة ٢/ ٤٥٥، تاريخ الخلفاء ١٤٧ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٢١ ، شذرات الذهب ١/ ٤٠ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٠٧ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٢٩، العبر ١/ ٣٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٤٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٩٢ .

(2) انظر : أسد الغابة ٤/ ٩١ ، الإصابة ٢/ ٥٠١ ، تاريخ بغداد ١/ ١٣٣ ، تاريخ الخلفاء ١٦٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١٠ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٣٢ ، شذرات الذهب ١/ ٤٩ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٠ ، العبر ١/ ٤٦ ، مروج الذهب ٢/ ٣٥٨ ، النجوم الزاهرة ١/ ١١٩ .

(3) انظر : تاريخ الخميس ٢/ ٣٠٠ ، منهاج السنة ٢/ ٢٣٧ – ٢٥٤ ، الكامل ٤/ ٤٩ ، مختصر تاريخ العرب ٧١ – ٧٦ ، البدء والتاريخ ٦/ ٦ – ١٦ ، تاريخ اليعقوبى ٢/ ٢١٥ ، جمهرة الأنساب ١٠٣ ، بلغة الظرفاء ١٩ ، مروج الذهب ٢/ ٦٧ – ٧٣ ، القلائد الجوهرية ٢٦٢ ، رغبة الأمل ٤/ ٨٣ – ٨٤ و ٥/ ١٢٩ ، الوزراء والكتاب ٢٥ .

(4) هو عقبة بن نافع عبد القيس الأموى القرشى الفهرى فاتح من كبار القادة فى صدر الإسلام وهو بانى مدينة القيروان . ولد سنة ١ ق هـ / ٦٢١ م ، ومات سنة ٦٣ هـ/ ٦٨٣ م .

انظر : الاستقصا ١/ ٣٦ – ٣٨ ، البيان المغرب ١/ ١٩ ، فتح العرب للمغرب ١٣٠ – ١٥٢ ثم ١٧٨ – ٢٠٥ ، بغية الرواد ١/ ٧٦ .

أسلم ثم ولى الوليد بن عبد الملك[1] بن مروان بن الحكم موسى بن نصير[2] على المغرب أيضاً فى سنة اثنتين وتسعين وصار فيه حتى بلغ سبتة وطنجة وجاز منه لبر الأندلس وافتتحه مع مولاه طارق بن زياد[3] وأسلم على يده أيضاً بعض من بالمغرب حتى لم يبق منه موضع إلا وعند الله تعالى فيه بسبب قدوم ولى الله الصالح إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان سبب قدومه من المشرق إلى المغرب على ما حكاه محمد بن جرير الطبرى[4] وغيرة

---

(١) انظر التفاصيل فى : الكامل ٥/ ٣ ، تاريخ الطبرى ٨/ ٩٧ ، بلغة الظرفاء ٢٣ ، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٢٧ ، تاريخ الخميس ٢/ ٣١١ – ٣١٤ ، مروج الذهب ٢/ ١١٩ – ١٢٧ ، الذهب المسبوك ٢٩ ، عنوان المعارف للصاحب ١٥ .

(٢) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء أبو عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادى القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية. ولد سنة ١٩ هـ / ٦٤٠ م ومات سنة ٩٧ هـ / ٧١٥م .

انظر : نفح الطيب ١/ ١٠٨ – ١٣٤ ، الحلة السيراء ٣٠ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٣٤ ، جذوة المقتبس ٣١٧ ، بغية الملتمس ٤٤٢ ، تراجم إسلامية ١٠٩ ، البيان المغرب ١/ ٤٦ ، نخب تاريخه ١١

(٣) هو طارق بن زياد الليثى بالولاء فاتح الأندلس، أصله من البربر أسلم على يد موسى بن نصير ، ولد سنة ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م ، ومات سنة ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .

انظر : نفح الطيب ١/ ١٠٨ ، البيان المغرب ١/ ٤٣ ، بغية الملتمس ١١و ٣١٥، المعجب ٩ – ١١ و ٣١٥ ، المعجب ٩ –١١ ، الكامل ٤/ ٢١٢ ، تهذيب ابن عساكر ٧/ ٣٨ .

(٤) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الإمام العلم أبو جعفر الطبرى له عدة مصنفات منها " تهذيب الآثار " و "تاريخ الإسلام" و "التفسير" مات سنة ٣١٩ هـ .

انظر : البداية والنهاية ١١/ ١٣٥ ، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢ ، تذكرة =

أن إسحاق بن عيسى الأمير بالمدينة وفد على الخليفة موسى الهادى [1] بن أبي جعفر المنصور واستخلف عليها عمر [2] بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فظهر منه مخالفة فى آحكامه فغير عليه ذلك حسين بن على ابن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، ورفض لناس إمرته واستدعوا حسينا للبيعة ، فجلس على المنبر وعليه عمامة بيضاء ، وصار الناس يأتونه يبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجاء خالد البربرى فى مائتين من الجند يقاتل حسينا فقاما إليه ابنا عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنه وهما يحيى وإدريس فضربه يحيى على أنف البيضة وقطعها وقطع أنفه فشربت عيناه بالدم فلم يبصر فنزل وجعل يده بسيفه عن نفسه وهو لا يبصر واستداره إدريس من خلفه فضربه وصرعه وعلواه بأسيافهما حتى قتلاه ثم قتل بالمدينة شيعة بنى العباس وجاء مبارك التركى [3] فأغاثهم ثم تركهم ، وأقام حسين بالمدينة أحد عشر يوما وأصحابه فغدروه ولحق بمكة وكان وفد للحج تلك السنة محمد بن سليمان بن على بن محمد بن عبد الله ابن العباس والعباس بن محمد بن على وموسى بن عيسى بن موسى بن العباس

= الحفاظ ٢/ ٧١٠، تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٧٨ ، طبقات السبكى ٣/ ١٢٠ ، طبقات الفقهاء ٩٣، طبقات العبادى ٥٢ ، الوافى بالوفيات ٢/ ٢٨٤ .

(١) انظر : الكامل ٦/ ٢٩ – ٣٦ ، تاريخ اليعقوبى ٣/ ١٣٦ .

(٢) انظر المزيد فى : تاريخ الخلفاء ٢٢٨ ، تذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، تهذيب التهذيب ٧/ ٤٧٥، حلية الأولياء ٥/ ٢٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ٢٤١ ، شذرات الذهب ١١٩/١، صفوة الصفوة ٢/ ٦٣ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٢٤٢ ، طبقات الفقهاء ٦٤، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٥٩٣ ، العبر ١/ ١٢٠ ، النجوم الزاهرة ٢٤٦/١ .

(٣) انظر : تاريخ المغرب للدكتور حسين مؤنس ٢/ ١٢٠ .

وعلى الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فأتوا ذا طوى فى أربعة آلاف فارس ، وقد ورد كتاب الهادى بتولية محمد بن سليمان الحرب فوجه محمداً أبا كامل مولى لإسماعيل بن على فلما رأى القوم صار معهم فظفر به فقتله ثم قاتل محمد بن سليمان حسينا فهزمه وقتله وقتل أكثر من كان معه وأقاموا ثلاثة أيام حتى أكلت لحومهم الطير والسباع وكان ذلك بفخ وهو موضع فيه قرية على مسيرة ثلاثة أميال من مكة شرفها الله تعالى . كذا ضبطها البكرى [1] فى كتاب معجم ما استعجم فى حرف الفاء وتشديد الخاء المعجمة وكثير من لا خبرة له بالتاريخ يقول له بالجيم والتحقيق أنه بالحاء المعجمة كما ذكر وكانت هذه الوقعة فى يوم السبت وصادفت يوم التروية الثامن لشهر الحجة من سنة تسعة وستين ومائة وقال فيه أحد الشعراء :

فلا بكين على الحسين ... بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى ... تركوه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة ... فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما قتلوا ... لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم ... غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم ... فلهم على الناس المنن

وحضره بعد الوفاة محمد بن سليمان قاتل حسين فجعل جلساؤه يلقنونه الشهادة وهو يقول :

آلا ليت أمى لم تلدنى ولم اكن ... لقيت بفخ لا حسينا ولا حسن

---

(1) انظر : ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال ٢٨٢ ، طبقات الأطباء ٢/ ٥٢ ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، آداب اللغة ٣/ ٨٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٨ – ٥٠٠ ، وقد نشر هذا الكتاب فى لجنة التأليف والترجمة – بالقاهرة .

وفى هذه الواقعة أفلت إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب على ما حكاه المظفرى[1] وصار مع مولاه راشد إلى مصر وعلى بريدها واضح مولى صالح بن منصور فجعله على البريد إلى المغرب فوقع بحومة بلاد طنجة ثم إلى بلد وليلى قاعدة زرهون واستجاب له قبائل البربر وعلاه أمره وشاع خبره،وهذه البلدة قديمة البناء يذكر أنها من بنيان القبط وهى معروفة الآن بقصر فرعون من أرض أولاد تعلو وهى متوسطة بين العمارات خصيبة كريمة المياه والفرس والزيتون كان لها سور عظيم قد بقى بعضه و فيه عبرة للمعتبرين . ولما وصل مولاناه إدريس إلى بلد وليلى [2] نزل على صاحبى الأمير إسحاق بن محمد ابن عبد الله الأوروبى فأقبل عليه واكرامه وبالغ فى بره ، وكان نزوله بو ليلى فى أول شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين ومائة فأقام عنده والناس يفدون عليه إلى أن دخل شهر رمضان السنة فبايعه جميع قبائل البربر وخرج بهم إلى تامسنا[3] ففتح شلة [4] وسائر تلك الحصون وصار إلى تادله [5] فافتتح حصونه إلى أن بلغ ماسة ، وكان أكثر هذه البلاد على دين النصرانية واليهودية والمجوسية والإسلام بها

---

(1) نشر هذا الكتاب فى بيروت عام ١٩٨٧ م .

(2) مدينة بالمغرب قرب طنجة لما دخل إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ناجياً من وقعة فخ حصل بها فى سنة ١٧٢ هـ فى أيام الرشيد وأقام بها على أن مات مسموماً فى قصة طويلة سنة ١٧٤ هـ .

انظر : معجم البلدان ٥/ ٣٨٤ طبعة دار صادر .

(3) قرية لكتامة وزنانة قرب المسيلة وأشير بالمغرب .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٧ .

(4) انظر : المعجب للمراكشى ١٧ .

(5) بفتح الدال واللام من جبال البربر بالمغرب قرب تلمسان وفاس .

انظر : معجم البلدان ٢/ ٥ – ٦ .

قـليل فأسلم جميعهم لم يبق بالمغرب موضع يعبد غير الله فيه وذلك مما أخبر الرسول به عليه الصلاة والسلام أن يكون فأنه فى جاء فى الصحيح أنه قال :

زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها ولما نزل إدريس بخارج تلمسان واستقلت له إمارة المغرب بأسره اتصل ذلك بالرشيد وضاق وأهتم لذلك وخشى أن يتوجه لإفريقية فيصل إليه لما يعلم من فضله وكماله ومحبة الناس فى آل البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه الرشيد من يقاله واختار لذلك سليمان بن جرير فخرج إليه من بغداد حتى وصل المغرب وقدم إلى إدريس بمدينة وليلى فسلم عليه سليمان وسأله إدريس عن أسمه ونسبه ومن أى بلاد قدم ؟ وما سبب قدومه إلى المغرب ؟ فذكر له أنه من بعض موالى أبيه وأنه أتصل به خبره فأتاه برسم خدمته لأجل محبته وولايته لأهل البيت إذ لا يعدل بهم أحد ولا يقاس بهم سواهم فأنس به إدريس وسكن إلى فوله وسربه ، فكان إدريس لا يعقد ولا يأكل ولا يشر إلا معه ولم يزل يترقب الفرصة ويعمل الحيلة فى قتله فلم يجد لذلك سبيلاً لموالاة مولاة راشد [1] الذى لا يزايله

---

(١) انظر التفاصيل فى: الأنيس المطرب ٣٧ . هو راشد مولى إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن المثنى، وأمينه كان فى خدمته بالمدينة ثم بمكة وخرج معه من هذه عاربين مستترين بعد وقعة "فخ" التى قتل فيها الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ هـ ، فمرا بمصر وإفريقية ودخلا المغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ ، فأقاما بمدينة "وليلى" بقرب مراكش. ودعا إدريس إلى نفسه، فعظم أمره وملك " وليلى" وبلاداً أخرى ، وراشد عون له وكالىء . وقتل إدريس بالسم . فلحق راشد بقاتله فضربه بالسيف فقطع يمناه ، وعاد إلى وليلى، فعلم من جارية لإدريس أسمها " كنزة" أنها حامل ، فتولى إدارة الملك بأسم "الجنين" إلى أن ولدت كنزة، فسمى ولدها (إدريساً) على اسم أبيه وجدد له بيعة البربر، وقام بأمره وأمر دولته ، وعلمه ورباه. وكان الأغالبة فى القيروان يتتبعون أخبار الدولة الناشئة فى جوارهم ، ويبعثون بالأموال للقضاء على إدريس (الرضيع) وكانت لهم يد =

ولا يفارقه إلى أن غاب رشيد ذلك يوماً فى بعض شؤنه فدخل عليه سليمان فوجده. فقال: يا سيدى جعلت فداك إنى جئت من المشرق بفارورة طيب لا تطيب بها ثم إنى رأيـــت أن الإمام أولى بها فخذها لتتطيب بها فقد اثرتك بها على نفسى ثم أخرجها ووضعها بين يدى إدريس فأخذ إدريس الفارورة ففتحها وشمها ، فلما رءاه سليمان فعـــل ذلك تحصل له مراده وتمت حيلته جعل يتسلل من المجلس وخرج كأنه يريد قضــــاء حاجته فصار إلى منزله وركب فرساً له من سباق الخيل كان قد أعده لذلك وخـــرج من وليلى يطلب النجاة وكانت الفارورة مسمومة فحين استنشق إدريس الطيـــب الذى بها صعد السم إلى خياشمه وانتمى إلى دماغه فغشى عليه وسقط ميتا وذلـــك فى منسلخ شهر ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين ومائة فكانت أيام دولته ســـنتين وثمانية أشهر انتهى ما حكاه البكرى فى مسالكه. قال شاعر على ما حكاه المظفـــرى .

أتظن يا إدريس إنك مفلـــــــــت	كيد الخليفة أو يفيك فـــــرار
أن السيوف إذا اقتضاها سخطـــه	طالت تقصر دونها الأعمـــــار
فليدركنك أو تدلى ببلـــــــــدة	لا يمتدى فيها فـــــــــرار
ملك كان الموت يتبع أمــــــره	فمتى يقول تطيعه الأقـــــدار

ودفـــن إدريـــس رضى الله عنه بخارج باب وليلى ولم يزل الناس يعتنون بزيارة قبرة ويدعون إلى الله فى الحوائج فيستجاب لهم وظهر جسده بكفنه فى سنة

= فى : قـــتل أبيه بالسم . فما زالوا على ذلك إلى أن تمكن " إبراهيم بن الأغلب" من دس بعض البربر لراشد، فقتلوه غيلة ، فى وليلى، بعد نشوء إدريس وتسلمه عرش أبيه بقليل.

ثمانى عشرة وسبعمائة وازدحم الناس عليه من سائر أقطار المغرب حتى خيفت الفتنة بسبب ذلك فبعث أمير المسلمين أبو سعيد بن يعقوب بن عبد الحق تقبل الله أعماله بتفريقهم وتحسيم الفتن من أجل ذلك ، كذا وقفت عليه فى أمر سلطانى يقضى بذلك .

ولما توفى إدريس ترك جارية له مولده من بلاد البربر اسمها كنزة حاملاً فى السابع من أشهر حملها وحين دنا وضعها ولدت ولداً ذكراً أشبه الناس بأبيه إدريس وذلك فى رجب من سنة خمس وسبعين ومائة وسمى باسم أبيه وأقام راشد مولاه بأمره وكلفه إلى أن فطن وشب فأدبه أحسن أدب وأقرأه القرآن فحفظه وله من السن ثمانية أعوام وعلمه السنة الفقه والشعر وأمثال العرب وحكمها وسياستها ودربه على ركوب الخيل ورمى بالسهام ولما كمل له من السن إحدى عشرة سنة أو نحوها أخذله مولاه راشد البيعة من سائر القبائل فبويع له بجامع مدينة وليلى فى يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الأول من سنة ست وثمانين ومائة فقد بان له من هذا أن مدة بقيه حمل أمه به بعد وفاة والدة ومدة كفالة راشد له عشر سنين وعشرة أشهر وحين أخذت له البيعة صعد المنبر فخطب الناس فى ذلك اليوم فكان مما قال الحمد لله أحمده واستغفره واستعين به وأتوكل عليه وأعوذ بالله من شر نفسى ومن شر كل ذى شر وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الثقلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، أيها الناس أنا قد ولينا هذا الأمر الذى يضاعف فيه المحسنين الأجر وللسيئين الوزر ونحن والحمد لله على قصد جميل فلا تمد الأعناق إلى غيرنا فإن الذى تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا . ثم دعا الناس إلى بيعته فبايعوه بل وعظهم على التمسك بطاعة الله وطاعته ، فعجب الناس من فصاحته وبيانه ووزانة عقله وبلاغته وبراعته ثم نزل فتسارع الناس إلى بيعته

وازدحموا عليه يقبلون يديه فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر وتمت له البيعة واستقام له الأمر بالمغرب وتوطا ملكه وكبر سلطانه وقويت جنوده وعظمت جيوشه ومما يذكر هنا أنه قال فى حال قتاله لمن عانده

أليس أبونا هاشم شدازره	وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا	ولا نشتكى مما يول إلى النصب
ولا كننا أهل الحفائظ والنهى	إذا طار أرواح الكماة من الرعب

وقصدوا نحوه من كل مكان ووفدوا إليه من سائر البلدان وكان ممن وفد عليه نحو من خمسمائة فارس من إفريقية والأندلس من القيسية والأزد والخزرج ومدلج وبنى يحصب وغيرهم ،فسر الإمام إدريس بوفادتهم وأجزل صلاتهم وقربهم ورفعهم وجعلهم بطانته دون البربر فأعتز بهم لأنه كان فريدً بين البربر . ولما رأى الإمام إدريس أن الأمر استقام له وعظم ملكه وكثر حشمه وضاقت بهم مدينة وليلى عزم الانتقال منها وأراد أن يبنى مدينة لنفسه فيسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب بعد الاستخارة فى خاصة من قومه وجال جملة من النواحى إلى أن بلغ جبل زالغ فعزم أن يبنى به مدينة عظيمة فظهر له أن الهدام تكثر فيه زمن الفيض فأنتقل لوادى سبو وعزم أيضاً أن يبنى به المدينة فظهر أن السيول تصل إليها فى زمن الفطر وما زال ترداده حيث يبنى واستشار وزيره عمير بن مصعب الأزدى ليرتاد له موضعاً للمدينة فصار عمير فى جماعة من قومه لينظر ما طلب فأخترق تلك النواحى إلى أن نزل على عين ماء مطردة فتوضأ منها هو ومن كان معه وصلى بهم حولها ثم دعى الله تعالى أن يهون مطلبه وأن يدله على موضع يرتضيه لعبادته فسميت العين به عين عمير إلى الآن ثم ركب وتوجه نحو فحصن

سايس يطلب ما خرج إليه حتى وصل إلى العيون التي ينبع منها وادى فاس فرأى عيوناً كثيرة تزيد على ستين عنصر اطرد على رضراض حول العيون بعد أن شرب من الماء فاستطابه ثم صار مع مسير الوادى حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظر إلى ما بين العدوتين فرأى غيضة ملتفة الأشجار مطردة العيون والأنهار. وفى مواضع منها خيام من شجر يسكنها قبيلة زنانة يعرفون بزواغة وبنى يرعس، فرجع عمير على الإمام إدريس وأعلمه بما رأى من الأرض وما أستحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها ، فأعجب الإمام إدريس من ذلك وسأل عن ملاك الأرض ، فقيل له هم قوم من زواغة يعرفون ببنى الخير . فقال الإمام إدريس هذا فال حسن ثم بعث إليهم وأشترى منهم موضع الأرض بستة آلاف درهم ودفع لهم الثمن وأنعقد الأشهاد بينهم بذلك فى رسم من انشاء كاتبه أبي الحسين عبد الله ابن مالك المالكى الأنصارى المخزومى وذلك فى سنة إحدى وتسعين ومائة ثم أن الإمام إدريس ضرب اخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ودور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة إلى زمننا هذا ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالمفرمدة من عدوة القرويين حيث دار الفيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ثم شرع فى البناء حسبما يذكر بعد كذا ذكره ابن الرقيق وغيره .

ومن فضل هذه المدينة وشرفها ما نقله خلقهم عن سلفهم أنه وجد فى كتاب دارس بن إسماعيل[1] المكنى بأبي ميمونة بخط يده رحمه الله تعالى حدثنى على ابن أبي مطر بالإسكندرية قال حدثنى محمد بن إبراهيم [2] الموازعن

---

(١) ورد ذكره فى عدة مصادر .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن زياد المواز أبو عبد الله فقيه مالكى من أهل الإسكندرية انتهت إليه رياسة المذهب فى عصره . له عدة تصانيف . مات سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م . انظر المزيد فى : شذرات الذهب ١٧٧/٢، الوافى بالوفيات ١/ ٣٣٥ .

عـــبد الـــرحمن بن القاسم [1] عن مالك بن أنس عن محمد بن شهاب الزهرى [2] عـــــن ســـــعيد بن المسيب [3] .

---

(1) هـــو عـــبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقى أبو عبد الله المصرى العتقى الفقيه راوية المسائل عن مالك . روى عن بكر بن مضر وابن عيينة وعدة. وعنه ابنه موسى وأصبغ ابن الفرج وسحنون بن سعيد وأخرون . قال ابن حبان : كان خيراً فاضلاً ممن تفقه على مذهب مالك وفرع على أصوله. مات سنة ١٩١ هـــ .

انظـــر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٢٧٦ ، اللباب ٢/ ١٢٠ ، العبر ١/ ٣٠٧، شـــذرات الذهـــب ١/ ٣٢٩ ، الديباج المذهب ١٤٦ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٦ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٧١، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٧ .

(2) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدنى أحد الأعلام، نزل الشـــام وروى عن سهل بن سعد وابن عمر وجابر وأنس وغيرهم من الصحابة وخلق من التابعين . وعنه أبو حنيفة ومالك وعطاء بن أبى رباح وعمر بن عبد العزيز وهما من شيوخه وابن عيينة والليث والأوزاعى وابن جريج وخلق .

قـــال ابن منجويه : رأى عشرة من الصحابة وكان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم ســـياقاً لمـــتون الأخبار ، فقيهاً فاضلاً . وقال الليث : ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شـــهاب ولا أكـــثر علماً منه . وكان ابن شهاب يقول : ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته. مات سنة ١٢٤ هـــ .

انظـــــــر : تذكرة الحفاظ ١/ ١٠٨ ، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٥ ، حلية الأولياء ٣/ ٣٦٠ ، خلاصـــة تذهيـــب الكمال ٣٠٦ ، شذرات الذهب ١/ ١٦٢ ، طبقات الفقهاء ٦٣، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ١٦٢ ، العبر ١/ ١٥٨ ، النجوم الزاهرة ١/ ٢٩٤ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٥١ .

(3) هـــو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومى أبو محمد المدنى سيد التابعين . ولد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال محمد بن يحيى بن حبان : كان رأس من بالمدينة فى دهرة المقدم عليهم فى الفتوى سعيد ويقال : فقيه الفقهاء. وقال قتادة : ما رأيت أحداً=

عن أبي هريرة [1] رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنـــــــه قال : «تكون بالمغرب مدينة تسمى بفاس أقوم أهل المغرب قبله وأكثرهم صلاة وأهلها عـــلى السنة والجماعة ومنهاج الحق لا يزالون متمسكين به لا يضرهم من خالفهم يدفع الله عنهم ما يكرهونه إلى يوم القيامة» [2] .

= قـــط أعلم بالحلال والحرام منه . وكذا قال مكحول والزهرى وسليمان بن موسى . وعـــنه إن كنت لأرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد . وقال أحمد بن حنبل: أفضل التابعين سعيد بن المسيب قيل له فعلقمة والأسود. قال : سعيد وعلقمة والأسود. وقال يحيى بن سعيد: كان أحفظ الناس لآحكام عمر وأقضيته، كان يسمى راوية عمر . وقـــال أبو حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبي هريرة . مـــات سنة ٩٤ هــ وقبل سنة ٩٣ هــ .

انظـــر المزيد فى : تذكرة الحفاظ ١/ ٥٤ ، تهذيب التهذيب ٤/ ٨ ، خلاصة تذهيب الكمال ١٢١، شذرات الذهب ١/ ١٠٢ ، طبقات ابن سعد ٥/ ٨٨ ، طبقات الفقهاء ٥٧ ، العبر ١/ ١١٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٢٢٨ .

(١) هـــو أبـــو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى ، حفظ عن النبى صلى الله عليه وســلم الكثير ، وعن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب . وعنه سعيد بن المسيب وبشير بن نهيـــك وخلق كثير. وكان من أوعية العلم ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة والعبادة والتواضع . قال البخارى : روى عنه ثمانمائة نفس أو أكثر وولى إمرة المدينة وناب أيضاً عـــن مروان فى إمرتها . وقال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره . مات سنة ٥٨ هــ .

انظـــر المزيد فى : أسد الغابة ٦/ ٣١٨ ، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢ ، خلاصة تذهيب الكمـــال ٣٩٧ ، شذرات الذهب ١/ ٦٣ ، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٣٧٠ ، طبقات القراء للذهبى ١/ ٤٠ ، العبر ١/ ٦٢ ، النجوم الزاهرة ١/ ١٥١ .

(٢) متفق عليـــــــه .

وأن أبي مطـــر هو أبو الحسن على بن عبد الله بن أبي مطـــــر من أولاد أبي موســـى الأشعرى[1] وكان مجاب الدعاء، توفى بالإسكندرية سنة تسع وثلاثين وثلاثمائـــة كـــذا نقل صاحب المدارك[2] ودراس رحمه الله ممن أدخل مذهب مالك

---

(1) هو أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس استعمله النبى صلى الله عليه وسلم مع معاذ على اليمن ثم ولى لعمر الكوفة والبصرة وكان عالمًا عاملاً صالحًا تاليًا لكتاب الله ، إليه المنتهى فى حسن الصوت بالقرآن، حدث عنه طارق بن شهاب وابن المسيب وخلق . قال أبو إسحاق سمعت الأسود يقول : لم أر بالكوفة أعلم من على وأبى موسى. مات فى سنة ٤٤ هـــ .

انظر المزيد فى : أسد الغابة ٦/ ٣٠٦ ، الإصابة ٢/ ٣٥١، تذكرة الحفاظ ١/٢٣ ، خلاصـــة تذهيـــب الكمال ١٧٨ ، شذرات الذهب ١/ ٥٣، طبقات الفقهاء ٤٤، طبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٤٤٢، طبقات القراء للذهبى ١/ ٣٧، العبر ١/ ٥٢، النجوم الزاهرة ١/ ١٢٦ .

(2) هـــو القاضـــى عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض العلامة عالم المغـــرب أبو الفضل اليحصبى السبتى الحافظ . ولد سنة ٤٧٦ هـــ أجاز له أبو على الغســـانى وتفقـــه وصـــنف التصانيف التى سارت بها الركبان " كالشفاء" و "طبقات المالكية" و " شرح مسلم" و " المشارق " فى الغـــــريب و "شرح حديث أم زرع " و " التاريخ " وغير ذلك ، وبعد صيته وكان إمام أهل الحديث فى وقته ، وأعلم الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. وولى قضاء سبته ثم غرناطة. مات سنة ٥٤٤ هـــ .

انظـــر المزيد فى : إنباه الرواة ٢/ ٣٦٣ ، البداية والنهاية ١٢/٢٢٥ ، بغية الملتمس ٤٢٥ ، تاريخ الإسلام وفيات سنة ٥٤٤، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٠٤ ، تهذيب الأسماء والـــلغات ٢/ ٤٣ ، الديبـــاج المذهب ١٦٨ ، الرسالة المستطرفة ١٠٦ ، روضات الجنات ٢/ ١١٥ ، طبقات المفسرين للداودى ٢/ ١٨ ، العبر ٤/ ١٢٢، المعجم =

رضـــى الله عنه بلاد المغرب فإنه كان الغالب عليه فى القديم على مذهب الكوفيين إلى أن دخـــل على بن زياد [1] وابن أشرس[2] وأحمد بن بهلول بن راشد[3] وبعدهم

= لابن الأبار ٣٠٦ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٤٩ ، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٥، وفيات الأعيان ١/ ٣٩٢ .

(١) هـــو أبو الحسن على بن زياد التونسى العبسى قيل أصله من العجم ، ولد بطرابلس ثم أنتقل إلى تونس فسكنها . سمع مالك وسفيان الثورى والليث بن سعد وابن لهيعة. سمع منه البهلول بن راشد وسحنون وشجرة وأسد بن الفرات وغيرهم . هو أول من أدخل الموطأ بإفريقية وجامع سفيان .

(٢) هـــو عـــبد الرحيم بن أشرس هو أنصارى من العرب من أهل تونس كنيته أبو مسعود وسماه المالكى العباس ، ثقة فاضل سمع من مالك بن أنس ومن ابن القاسم . روى عنه عـــبد الـــرحمن حديث الموطأ . قال سحنون : كان على بن زياد خير أهل إفريقية فى الضـــبط للعـــلم ، وكان ابن أشرس أحفظ على الرواية، وكان شديد الأمر بالمعروف والـــنهى عـــن المـــنكر. روى عنه ابن وهب وسعيد بن أبى جعفر وعمران بن هارون وغيرهم .

(٣) هـــو أبـــو عمر البهلول بن راشد من أهل القيروان . كان ثقة مجتهداً ورعاً مستجاب الدعوة ، كان عنده علم كثير . سمع من مالك والثورى وعبد الرحمن بن زياد ويونس ابن زيد وحنظلة بن أبى سفيان وموسى بن على بن رباح والليث بن سعد والحارث بن نبهان، سمع الموطأ من على بن زياد وابن غانم وسمع جامع سفيان الصغير من ابـــــــن أبى الخطـــاب وأبى خارجة والجامع الكبير من على بن زياد . سمع منه سحنون وعون الجعفرى وخالد بن يزيد وأبو سنان ويحيى بن سلام وغيرهم . كان بهلول بن راشد من أهل الفضل والعلم والورع معروفاً بذلك مع العبادة والاجتهاد وقال سحنون : كان البهـــلول رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره ، وإنما اقتديت به فى ترك السلام على أهل الأهواء .

فـرات[1] وغيرهم من الحافظين لمذهب مالك فأخذهم كثير من الناس به فلم يزل ينتشـر ويظهر إلى أن جاء سحنون[2] فعظ خلق المخالفين واستقر المذهب بعده فى أصحابه فشاع فى أقطار المغرب إلى زماننا هذا .

وأما أهل الأندلس فكان رأيهم منذ أفتتحت على رأى الأوزاعى[3] إلى أن

---

(1) هو أبو سهل فرات بن محمد العبدى هو معدود من رجال سحنون وسمع منه ومن عون ابن يوسف وابن أبي حسان اليحصبي وأبي ذكرياء الحفرى وابن عبد الحكم وابن بكير ونعيم بن حماد وأصبغ بن أبي الفرج ومحمد بن فضيل .

(2) هـو أبـو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي وغلب عليه لقب سحنون سمع بإفـريقية مـن عـلى بن زياد والعباس بن أشرس وبهلول بن راشد وعبد الله بن غانم ومعاوية الصمادحي. ثم رحل إلى الشرق سنة ١٨٨ هـ فسمع بمصر من ابن القاسم وابـن وهـب وأشهب وابن عبد الحكم وشعيب بن الليث ويوسف بن عمر. وسمع بالمديـنة مـن عـبد الله بن عبد الله بن نافع ومعن بن عيسى وأنس بن عياض وابن الماجشون والمغيرة بن عبد الرحمن ومطرف ، وسمع بالشام من الوليد بن مسلم وأيوب بـن سويد، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدى ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث ويزيد بن هارون وأبي داود الطيالسي وغيرهم ولـد سحنون سنة ١٦٠ هـ ، ومات سنة ٢٤٠ هـ .

(3) هو عبد الرحمن الأوزاعى بن عمرو وأبو عمر وإمام أهل الشام فى وقته نزيل بيروت روى عن عطاء وابن سيرين ومكحول وخلق . وعنه أبو حنيفة وقتادة ويحيى بـن أبي كثير والزهرى وشعبة وخلق . قال ابن عيينة كان إمام أهل زمانه . وقـال ابـن سعد : كان ثقة مأموناً، صدوقاً فاضلاً ، خيراً كثير الحديث والعلم والفقـه ولد سنة ٨٨ هـ، ومات سنة ١٥٧ هـ .
انظـر المزيـد فى : تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٨ ، تهذيب التهذيب ٦/ ٢٣٨، خلاصة تذهيب الكمال ١٩٧ ، العبر ١/ ٢٢٧ .

رحل إلى مالك زياد بن عبد الرحمن [1] وفرعوس بن العباس[2] ومن بعدهما فجاءوا بعلم مالك وأبانوا للناس من فضله واقتداو الأئمة به فعرف حقه ودرس مذهبه إلى أن أخذ به أمير الأندلس وهو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مروان [3] وأمر الناس جميعاً بالتزامهم مذهب مالك وصير القضاء والفتيا عليه وذلك فى العشرة بعد السبعين ومائة فى حياة مالك رحمه الله وشيخ المفتيين حينئذ

---

(1) هو أبو عبد الله عياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون قرطبى . سمع من مالك الموطأ روى عن عبد الله بن عقبة والليث بن سعد وسليمان بن بلال وعبد الله بن عبد الرحمن وعبد الرحمن بن أبي الزناد وعبد الله بن عمر العمرى ويحيى بن أيوب وأبى معشر وموسى بن على ومحمد بن عبد الله بن عمر الليثى والقاسم بن عبد الله وغيرهم وهو أول من أدخل الموطأ فى الأندلس وعلم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والآحكام .

(2) هو فرعوس بن العباس بن فرعوس بن حميد من أهل قرطبة يكنى أبا الفضل سمع مالك . والثورى وابن جريج والليث وابن أبى خازم وغيرهم . كان رجلاً متديناً فاضلاً ورعاً، كان علمه المسائل على مذهب مالك وأصحابه . مات سنة ٢٢٠ هـ .

(3) هو هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أبو الوليد ثانى ملوك الدولة الأموية بالأندلس ولد بقرطبة سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦م وولاه أبوه ماردة وبويع بعد وفاة أبيه سنة ١٧٢ هـ فحسنت سياسته، وكان حازماً وشجاعاً شديداً على الأعداء راغباً فى الفتح موفقاً بنى عدة مساجد، وتمم بناء جامع قرطبة. وكان أبوه قد بدأ به وكان يبعث إلى الكور من يسأل أهلها عن سيرة عماله فيها وأحبه الناس لعدله، وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز، استمر إلى أن توفى بقرطبة سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م .

انظر المزيد فى : البيان المغرب ٢/ ٦١ ، نفح الطيب ١/ ١٥٨، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٤ ، الكامل ٤٩/٦ ، أخبار مجموعة ١٢٠ ، جذوة المقتبس ١١، الحلة السيراء ٣٧، المعجب ١٩ .

صعصعة بن سلام [1] إمام الأوزاعية وقد لحق به من أصحاب مالك غيره فألتزم الناس بهذا المذهب وحملوا بالسيف عن غيره جملة وأدخل فيها قوم الراحلين بالغرباء شيئاً من مذاهب الإمام الشافعى [2] وأبى حنيفة [3]

---

(1) هو صعصعة بن سلام بن عبد الله الدمشقى أبو عبد الله خطيب قرطبة ، وأول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعى إلى الأندلس، ولد ونشأ بدمشق وأنتقل إلى قرطبة، فكانت الفتيا دائرة عليه فيها ، أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصدراً من أيام هشام، وتوفى بها سنة ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م .

انظر التفاصيل فى : جذوة المقتبس ٢٢٧ ، النجوم الزاهرة ٢/ ١٤٠ ، تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٢٣، البداية والنهاية ١٠/ ٢٠٩ .

(2) انظر المزيد فى : إرشاد الأريب ٦/ ٣٦٧، الأنس الجليل ٢٩٤/١، البداية والنهاية ٢٥١/١٠ ، تاريخ بغداد ٢/ ٥٦ ، تاريخ الخميس ٢/ ٣٣٥ ، تذكرة الحفاظ ٣٦١/١، ترتيب المدارك ٢/ ٣٨٢ ، تهذيب الأسماء واللغات ٤٤/١، تهذيب التهذيب ٣٥/٩ ، حسن المحاضرة ١/ ٣٠٣ ، حلية الأولياء ٦٣/٩، خلاصة تذهيب الكمال ٢٧٧، الديباج ٢٢٧ ، الرسالة المستطرفة ١٧، شذرات الذهب ٩/٢، صفوة الصفوة ٩٥/٢ ، طبقات الحنابلة ١/ ٢٨٠ ، طبقات الفقهاء ٧١، طبقات القراء لابن الجزرى ٩٥/٢، طبقات المفسرين للداودى ٣/ ٩٨ ، طبقات ابن هداية الله ١١، العبر ٣٤٣/١، الفهرست ٢٠٩ ، اللباب ٥/٢، مرآة الجنان ١٣/٢، النجوم الزاهرة ٢/ ١٧٦ ، الوافى بالوفيات ٢/ ١٧١، وفيات الأعيان ١/ ٤٤٧.

(3) انظر المزيد فى : البداية والنهاية ١٠٧/١٠ ، تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣، تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٨، تهذيب الأسماء ٢١٦/٢، تهذيب التهذيب ٤٤٩/١٠، الجواهر المضيئة ٢٦/١، خلاصة تذهيب الكمال ٣٤٥ ، شذرات الذهب ٢٢٧/١ ، طبقات ابن سعد ٦/ ٢٥٦ ، طبقات الفقهاء ٨٦، طبقات القراء لابن الجزرى ٢/ ٣٤٢، العبر ٢١٤/١، اللباب ١/ ٣٦٠ ، مرآة الجنان ١/ ٣٠٩ ، مفتاح السعادة ٢/ ١٩٥ ، ميزان الأعتدال ٤/ ٢٦٥، النجوم الزاهرة ٢/ ١٢ ، وفيات الأعيان ٢/ ١٦٣ .

وأحمد[1] وداود[2] فلم يمكنوا من نشره فمات بموتهم ألا من تدين به فى نفسه ممن لا يوبـــه بقوله وعلى ذلك مضى الأندلسيون إلى وقتنا هذا وسمى دراس لكثرة درسه العـــلم أصله من مدينة فاس سمع من شيوخ بلده وبإفريقية من أبى بكر بن اللباد[3] وغـــيره وبـــالأندلس مـــن شيوخها وله رحلة حج فيها وسمع من على بن أبى مطر بالإســـكندرية كتاب ابن المواز ، وحدث به بالقيروان سمعه منـــه أبو محمد بـــن أبى زيـــد[4] وأبو الحسن القابسى ودخل الأندلس مجاهداً وطال بها فسمع منـــه

---

(1) انظـــر المزيد فى : تاريخ بغداد ٤/ ٤١٢، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣١ ، تهذيب التهذيب ١/ ٧٢ ، حـــلية الأولياء ١٦١/٩، خلاصة تذهيب الكمال ١٠ ، الرسالة المستطرفة ١٨، شـــذرات الذهب ٩٦/٢ ، طبقات الحنابلة ١/ ٤ ، طبقات المفسرين للداودى ٧٠/١ ، العبر ١/ ٤٣٥ ، الفهرست ٢٢٩ ، مرآة الجنان ٢/ ١٣٢ ، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٤ ، وفيات الأعيان ١/ ١٧ .

(2) هـــو داود بن عمر و الضبى أبو سليمان البغدادى . روى عن ابن عليه وإسماعيل بن عيـــاش وجرير بن عبد الحميد وجويرية بن أسماء وحماد بن زيد وحفص بن عيـــاث وابن عيينة . وعنه أحمد بن حنبل ومسلم وإبراهيم الحربى وأحمد بن أبى خيثمة وحجاج ابـــن الشـــاعر وابن أبى الدنيا. كان أحمد بن حنبل يأخذ لـــه الركاب . مـــات سنة ٢٢٨ هـــ.

انظر المزيد فى : تذكرة الحفاظ ١٢/ ٤٥٦ ، تاريخ بغداد ٣٦٣/٨، تذكرة الحفاظ ٤٥٧/٢، العبر ١/ ٤٠٢ .

(3) هـــو محمد بن محمد بن وشاح مولى الأقرع مولى موسى بن نصير اللخمى من أصحاب يحـــيى بن عمر وتفقه به ، وأخذ عن أخيه محمد بن عمر وابن طالب وحمد يس القطان وأحمد بن يزيد وعبد الجبار بن خالد والمغامى وأحمد بن أبى سليمان . روى عنه زياد بن عبد الرحمن القروى ومحمد بن الناظور ودراس بن غسماعيل . ثقة .

(4) هـــو أبـــو محمد عبد الله بن أبى زيد إمام المالكية فى وقته وقدوتهم وجامع مذهب مالك وشارح أقواله ، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، مات ٣٨٤ هـــ .

أبـــو الفرج عبدوس [1] بن خلف وخلف بن أبى جعفر [2] وكان رحمه الله من الحفاظ المعدودين من أهل الفضل والدين ممن له الإمانة بمذهب مالك وأصحابه توفى بفاس ســـنة ســـبع وخمســـين وثلاثمائة وقبره بخارج باب الجيزيين معروف والدعاء عنده مســـتجاب وله بفاس مسجد يعرف به وقد جدد قبره الأمير أبو عنان [3] رحمه الله وجعـــل هنالك رخامة منقوشة باسمه وتاريخ وفاته ونصبت عند رأسه فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة .

---

(١) ورد ذكره فى ترتيب المدارك للقاضى عيـــاض .

(٢) ورد ذكره أيضاً فى ترتيب المدارك للقاضى عياض .

(٣) هـــو فارس بن على بن عثمان بن يعقوب المرينى أبو عنان المتوكل على الله من ملوك الدولـــة المريـــنية بالمغـــرب . ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) سنة ٧٢٩ هـــ / ١٣٢٩م ونشأ محبوباً فى قومه ، لفضله وعلمه ، وولاه أبوه أمارة "تلمسان" ثم ثار على أبيـــه ، وبويع فى حياته سنة ٧٤٩ هـــ ، ولما مات أبوه سنة ٧٥٢ هـــ ، استتب أمره فـــبدأ بإخضاع بنى عبد الواد وكانوا أمراء زنانة بتلمسان ، فقاتلوه فظفر بهم ودخل تلمسان وانتظم له أمر المغرب الأوسط وعصاه أخ له يدعى " ابا الفضل" فأرسل إليه مـــن قاتله فى جبل "السكسيوى" وجبال "المصامدة" من بلاد السوس ، فاعتقل وحمل إليه فسجنه أياماً ثم أمر بخنقه فى مجلسه سنة ٧٥٤ هـــ ، وقصد إفريقية سنة ٧٥٨هـــ، فانـــتزع قسنطينة وتونس من أيدى الحفصيين وبدت له ريبة فى إخلاص بعض قواده، فعاد إلى فاس وقتلهم. ومرض أياماً فدخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفردودى فقتله خنقاً لسبب بطول شرحه. وقد ذكره السلاوى فى الاستقصا وقال فيه : كان جهورى الصوت. فى كلامة عجلة، عظيم اللحية تملا صدره، فارساً شجاعاً يقوم فى الحرب مقام جنده، فقيهاً يناظر العلماء، كاتباً بليغاً شاعراً لـــه آثار من زوايـــــــا ومدارس . مات سنة ٧٥٩هـــ / ١٣٥٨ م .

انظـــــرالمزيد فى : جذوة الاقتباس ٣١٤ - ٣١٦ ، الاستقصا ٢/ ٧٩ - ١٠٢، الحلل المواشية ١٣٤ .

وأخـــبر ابـــن التـبان أن رجلاً من أهل المغرب قال له سنه سبع وخمسين وثلاثمائة نمت بالرمادة فرأيت السماء والأرض تبكيان. فقلت ما هنا فقيل لى مات أبو ميمونة دراس بن إسماعيل[1] فكان كذلك وكان كثيراً ما ينشد :

غفلت وحارى الموب فى أثرى يحدو	وليس معى زادَ وفى سَفَرى بُعـــدُ
أنعم جسمى باللباس ولينـــــه	وليس لجسمى من قميص البلابــد
كأنى به قدمد فى برزخ البـــلا	ومن فوقه ردم ومن تحته لحـــد
وقد ذهبت منى المحاســن وأمتحت	ولم يبق فوق العظم لحم ولا جــلد
فكيف إذا يارب بالنــــار فربت	ونارك لا يفوى لها الحجر الصــلد
عسى غافر الزلاب يغفـــر زلتى	فقد يغفر المولى إذ أذنب العبـــد

فقال أكثر هذا الفصل من المدارك وغيره ومن أراد الوقوف على أكثر من هـــذا فليطالع كتابى المستفاد فى مناقب العباد فنرجع إلى ما نحن بصدده . ولما عزم الإمـــام إدريس على بناء مدينة فاس بعد أن أخبر بتربتها وهوائها ورياحها ومائها وتحقـــق بعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العافمة . وعلم أن ذلك مما يليق بمسكنها رفع يده إلى السماء ودعا الله وقال : اللهم أجعلها دار علم وفقـــه يتـــلى بها كتابك وتقام بها سنتك وحدودك وأجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها .

ثم قـــال : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الأرض لله يورثها من يشاء من عـــباده والعاقـــبة للمتقين . ثم أخذ المعون بيده وابتأ بحفر الأساس وأتبعه الفعلة فى ذلك فلم تزل دار العلم وإقامة السنة ببركة وبركة دعائه رضى الله عنه .

---

(١) انظر : القاضى عياض ٤/ ٣٩٥ - ٣٩٧ .

وذكـــر ابـــن غالب فى تاريخه أن الإمام إدريس حين عزم على بناء فاس واخـــتطاطها مـــر به شيخ كبير من الرهابين كان مترهباً فى صومعة قريبة من تلك الجهات فوقف الإمام إدريس وسلم عليه ثم قال له : "أيها الأمير ما تريد أن تصنع بين هذين الجبلين ؟ " قال : اريد أن أختط بينهما مدينة لسكناى وسكنى ولدى من بعدى يعبد الله تعالى بها ويتلى فيها كتابه وتقام بها حدوده . فقال له ايها الأمير إن لـــك عندى فى ذلك بشرى قال وما هى أيها الراهب؟ قال إنه أخبرنى راهب كان قـــلبى فى هذه الديار هلك منذ مائة سنة أنه يجددها ويحيى أثرها ويقيم دراسها رجل من آل بيت النبوءة يسمى إدريس ولها شأن عظيم وقد ر جيم لا يزال دين الإسلام فأغاها إلى يوم القيامة . فقال الإمام إدريس الحمد لله أنا إدريس وأنا من آل النبوة وأنا بانيها إن شاء الله تعالى فكان ذلك مما قوى عزم إدريس على بنائها ويدل على ذلك والله أعلم ما رواه البرنسى[1] أن رجلاً من اليهود احتفر أساس دار من قنطرة عزيـــلة مـــن المدينة المذكورة والموضع يومئذ شعراء بالطخش والبلوط وغير ذلك فوجـــد فى الأســـاس قطعـــة رخام على صورة جارية منقوش على صدرها بالخط الهندى، هذا موضع حمام عمر ألف سنة ثم خرب فأقيم موضعه بيعة العبادة فقيل إن الإمـــام إدريس لما شرع فى بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة فصنع له فـــأس من ذهب وفضة، فكان الإمام إدريس يمسكه بيده ويبدأ به الحفر ويختط به

---

(1) هـــو أحمـــد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسى الفاسى أبو العباس زروق فقيه محدث صوفى من أهل فاس " المغرب " تفقه فى بلده وقرأ بمصر والمدينة وغلب عليه التصوف فـــتجرد وساح. ولد سنة ٨٤٦ هـــ / ١٤٤٢ م وتوفى فى تكرين سنة ٨٩٩ هـــ / ١٤٩٣ م

انظرالمزيد فى : جذوة الاقتباس ٦٠ ، البستان ٤٥ – ٥٠ ، الضوء اللامع ١/٢٢٢، المنهل العذب ١/ ١٨١ ، شذرات الذهب ٧/ ٣٦٣ .

كالأساسيات للفعلة فكثر ذلك على ألسنتهم فى طول مدة البناء فكان الفعلة يقولون هاتوا الفاس خذوا الفاس أحفروا بالفاس فسميت مدينة فاس لأجل ذلك قاله صاحب الاستبصار وهذا والله أعلم . لا يصح لأن الإمام إدريس رضى الله عنه يجهل أن استعمل الذهب محرم على رجال بل يقال أنه لما شرع فى حفر أساسها من جهة القبلة، وجد فى الحفر فاس كبير طوله أربعة أشبار وسعته شبر واحد وزنته ستون رتلا من عمل الأوائل فسميت المدينة به واضيفت إليه نقل معناها المظفرى وقال لأنه لما تمت بالبناء وقيل للإمام إدريس كيف تسميها قال أسميها بأسم المدينة التى كانت قبلها فى موضعها الذى أخبرنى الراهب أنه كانت هنا مدينة أزلية من بناء الأوائل فخربت من الإسلام بألف عام وكان أسمها مدينة ساف ولا كنى أقلب أسمها الأول لا سميها به فجاء به فاس ، كذا نقله أبو الحسن بن عبد الله بن أبى زرع[1] فى كتابه المسمى بالأنيس وكان تأسيس مدينة فاس على ما ذكر المؤرخون الذين عنوا بتاريخها وبحثوا عن أمورها وأحداثها على نحو ما يذكر .

أما عدوة الأندلس فأنها أسست فى يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة أقام الإمام إدريس منها بالموضع المعروف بجراوة حيث نزل باخبيته وقبابه وابتدأ سورها من جهة القبلة وفتح هناك باباً سماه باب القبلة ثم مر بالسور المعروف بالجرواوة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك باباً سماه باب جرواوة ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادى الكبير إلى برزخ

---

(١) هو على بن عبد الله أو ابن محمد بن أحمد بن عمر بن أبى زرع الفاسى ، مؤرخ من أهل فارس ، له " الأنيس المطرب وروض القرطاس" فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ترجم إلى كثير من اللغات الأوروبية و "زهرة البستان فى أخبار الزمان" لا يزال فى حكم المفقود.

انظر المزيد فى : آداب اللغة ٣/ ٢٠٩ .

وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية كان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين ثم مر بالسور إلى الشيبوبة وفتح هناك باباً سماه باب الشيبوبة كان يقابل باب الفصيل المعروف الآن بباب الفقيه من عدوة القرويين ثم مر بالسور إلى رأس مجر الفرج وفتح هناك باباً سماه باب أبي سفيان ثم مر بالسور على جرواوة وفتح هناك باباً سماه باب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة وبخارجه كان يسكن المرضى لتكون روايحهم تحت الريح الغربية فأنها الغالبة لفاس وليكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل من ضررهم شيء للمدينة ثم انتقلوا من الموضع المذكور لكهوف باب الشريعة الذى بأعلى المدينة فى زمن المجاعة وكانوا يتصرفونها فأمر بنقلهم لكهف بظاهر برج الكوكب وهو الذى فيه سكناهم الآن ثم مر بالسور إلى أن وصل باب القبلة المذكورة وقد أستدار بها السور وبنى بها جامعاً للخطبة بقرب رحبة البتر ويعرف بجامع الأشياخ .

وأما عدوة القرويين فأنها أسست فى مستهل ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومائة أقام بها بالموضع المعروف بالمفرمدة ويعرف الآن بدار الفيطون وبقرب مسجد الشرفاء حيث سكنى حفيد الإمام إدريس نفعنا الله بهم وحشرنا فى زمرتهم وابتدأ أسوارها من رأس عقبة عين عاو وفتح هناك باباً سماه باب إفريقية وبه يعرف الآن وجدده ووسعه الأمير المستعين فى شهر شوال سنة ستين وسبعمائة وكان حول العين هناك غيضة عظيمة يقطع فيها الطريق عبر أسود اسمه علو فرجع ذلك فلأمام إدريس وثبت عليه فأمر بصلبه على شجرة هناك إلى أن تقطعان أشلاوه فسميت العين بأسمه ثم مر بالسور إلى عين دردور إلى عقبة السعتر وفتح هنالك باباً سماه بباب الفصيل وهو الذى ذكرنا يقال له باب النقبة ثم مر بالسور من ضيرمة الوادى وفتح هناك باباً سماه باب الفرج ويعرف الآن بباب السلسلة ثم مر بالسور إلى عيون ابن الصاوى المعروفة الآن بعيون الكرازين ثم فتح هنالك باباً

سماه باب الحديد ثم مر بالسور لأعلى عقبه الجرف وفتح هناك باباً سماه باب القلعة ثم مـــر بالســـور حتى وصل به باب إفريقية المذكور وقد استدار بها السور ثم بنى جامعاً للخطبة متصلاً بمنزله وهو المعروف الآن بمسجد الشرفاء ولم يزل على نحوها بـــنات الإمام إدريس بن إدريس إلى أن اعتلت سقفه وتخلفت أجداره وتداعى إلى الســـقوط فأنتدب لبنائه من أبتغى الأجر من الله تعالى من أصهار الشرفاء الساكنين هـــناك وإقامـــة على ما هو عليه الآن وذلك فى سنة ثمانية وسبعمائة وكان فى أثناء ذلك أمر الناس ببناء الدور والغرس ونادى فيهم أن كل من بنى موضعاً أو أغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى، فيظهر من هذا والله أعلم .

أن مـــن بـــنى أو اغترسه بعد تمام السور أنما يكون باستئجار الأرض وهو ســـبب الجـــزاء فى بعـــض جهاتها وقد بحث بعض عمال فاس لم كانت دار الجزاء وبارائهـــا دار حـــرة لا جزاء عليها فصح عنده أن بعض المواضع يكون بها الدور والأجـــنان والفنادق وغير ذلك ثم ينجلى أو يموت أهلها ولا وارث لهم فيرج ذلك لنظر العامل فى الجزاء فيجزيه ويتخلص بوجه صحيح ثم يخرب أيضاً فيجزيه العامل كـــذا ذكـــر أشياخنا القدماء ولما فرغ الإمام إدريس من بناء أسوار المدينة وجامع خطبـــتها أنـــزل القبائل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت لذلـــك عـــدوة الأندلـــس ونزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فســـميت لذلـــك عدوة القرويين ثم أمرهم بزيادة البناء والغرس فبنى الناس الدور والمســـاجد والحوانيت وغرسوا جانبى الوادى من منبعه بفحص سايس إلى مصبه فى نهـــر سبو بأنواع الأشجار وحرثت سائر نواحيه بأنواع الزراعات فعمرت الأرض بالغراســـة والحراثة، وظهر صلاح ذلك والانتفاع بغلاته فى سائر الأوقات وكثرت الحيـــزات وزادت العمـــارات وقصـــدها الـــناس على اختلافهم من جميع البلاد والاصـــقاع وســـكنها الفقهـــاء والعلماء والتجار والصناع ، ولما سكنت مدينته

واستقامت رعيته وحضرته الجمعة صعد المنبر فخطب الناس ثم رفع يديه فى أخر خطبته وقال : اللهم إنك تعلم أنى ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة وأنما أردت أن تعبد فيها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ما بقى من الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه وأكفهم مؤنة أعدائهم وأدر عليهم الرزاق وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير. فأمن الناس على دعائه فكثرت بالمدينة الخيرات وظهرت البركات وأقام الإمام إدريس ساكناً بها على سنة سبع وتسعين ومائة ، فخرج إلى غزو من بقى من الكفار بنفيس وبلاد المصامدة فوصل غليها ودخل مدينة نفيس ومدينة أغمات[1] وفتح سائر بلاد المصامدة ورجع إلى مدينة فاس فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين ومائة ، فخرج منها إلى غزو تلمسان لتكون الكلمة واحدة فى أعزاز الدين فغلب عليها وأفتتحها ونظر فى أموالها وأصلح أسوارها وجامعها الذى باقادير وصنع فيه منبراً وكتب أسمه عليه كذا نقله ابن غالب وصاحب الأنيس. وقال عبد الملك الوراق فى مقايسه دخلت جامع تلمسان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت فى رأس منبرها الواحاً من بقية المنبر القديم فد سمرت هناك وعليها مكتوب هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة ثم رجع الإمام إدريس على مدينة فاس فلم يزل بها إلى أن توفى رحمه الله فى أول شهر ربيع الأول سنة ثلاث عشرة ومائتين وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وثمانية أشهر فكان أيام كفالته وبقية حمله

---

(١) هى ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش .
انظر : معجم البلدان ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

عشر سنين وعشرة أشهر وأيام ، إمارته سبعاً وعشرين سنة ويذكر أنه دفن بمسجد الشرفاء بإزاء الحائط الشرقي منه . وقد أنشد بعض الشعراء في ذلك :

منازل أهل الله آل رسولـــــــه فأحبب بهم أهلاً وأحبب بهم مغنى

مدينة إدريس بـــن إدريس التى بها قبره نـــــار وقبره مبنـــــى

وكـــان سبب وفاته على ما ذكر البكرى أنه أكل عنباً فشرق بحبة فمات مـــن حينه رحمه الله وخلف من الولد على ما ذكره ابن حزم [1] فى جمهرته[2] ثلاث عشـــر ذكـــراً . إدريـــس وأحمد وعبد الله ويحيى والحسن والحسين وداود ومحمد وعيســـى وعمر وجعفر والقاسم وقيل حمزة وقيل أكثر من ذلك فولى بعده منهم محمد وهو أكبرهم ومما قيل فى محاسن فاس :

---

(1) هـــو الإمام العلامة الحافظ الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف الفارسى الأصل اليزيدى الأموى مولاهم القرطبى الظاهرى. كان أولاً شـــافعياً ثم تحـــول ظاهـــرياً وكان صاحب فنون وورع وزهد، وإليه المنتهى فى الذكاء والحفظ، وسعة الدائرة فى العلوم ، أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه فى علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار. له " المحلى " على مذهبه واجتهاده، و "شرحه المحلى" و "الملل والنحل" و "الإيصال" فى فقه الحديث وغير ذلك. آخر من روى عنه بالإجازة أبو الحسن بن شريح بن محمد مات سنة ٤٥٧ هـــ . انظـــر المـــزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠ ، العبر ٣/ ٢٣٩ ، الصلة ٢/ ٤١٥، شذرات الذهب ٣/ ٢٩٩ ، بغية الملتمس ٤٠٣ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦ ، جذوة المقتبس ٢٩٠ .

(2) نشر الكتاب بتحقيق ليفى بروفنسال ثم نشر فى دار المعارف بالقاهـــــرة بتحقيق عبد السلام هارون .

يا فاس منك جمع الحسن مسترف والساكنون أهنيهم لقد رزقوا
هذا نسميك أم روح لراحتنا وماؤك السلسل الصافى أم الورق
أرض تخللها الأنهار داخلها حتى المجالس والأسواق والطرق

وقال آخر :

بلد أعرته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنها الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

وللفقيه أبي عبد الله المغيلى[1] فى وصف فاس وهو يتشوق غليها حين ولى القضاء وهو بمدينة أزمورة [2].

يا فاس حيى الله أرضك من ثرى وسقاك من صوب الغمام المسيل
يا جنة الدنيا التى أربت على حمص بمنظرها البهى الأجمل
غرف على غرف وتجرى تحتها ماء الذ من الرحيق السلسل
بساتين من سندس قد زخرفت بجداول كالأيم أو كالفصيل
وبجامع القروى شرف ذكره أنس تذكره هيم تبليل
وبصحنه زمن المصيف محاسن فمع العشى الغرب فيه استقيل
وأجلس إزاء الخضة الحسنا به وأكرمهم بها عنى فديتك وأنهل
فأعدوة القرويين التى كرمت لا زال جانبك المحبور معموراً
ولا سلب الله عليها ثوب نعمة أرض تجنبت الآثام والزورا

وقال آخر :

أليس لها على البلدان فضل عظيم القدر ليس له عنيد

---

(1) ورد ذكره وترجمة له فى البستان لابن مريم .

(2) بلد بالمغرب فى جبال البربر

انظر : معجم البلدان ١/ ٢١٦ .

أليس ترى عباد الله طـــــرا وكلهم لمالكها عبيـــــد

وقــالت الحكمــاء : لا تستوطن إلا بلدة فيها سلطان قاهر وطبيب ماهر ونهر جار وقاض عدل وسوق قائم .

وقــالت الحكمــاء أيضاً : أحسن موضوعات المدن أن تجمع خمسة أشياء وهــى النهر الجارى والمحرث الطيب والحطب القريب والسور الحصين والسلطان القاهــر إذ به نجاح مالها وتأمن سبلها وقد جمعت فاس هذه الخصال التى هى كمال المــدن وشرفها وزادت عليها محاسن كثيرة وساسرد منها نبذاً فمنها نهرها المعروف بنهر الجواهر الذى بأعلاها بنحو ستة أميال وهو يخرج من نحو ستين عنصر أحدها ينــبعث من جهة القبلة وبعضها من جهة الغرب مسامة لمشرق الشمس وله منظر عجيب لصفائه وانهماره على الرضاض فيجتمع ما يخرج من تلك العناصر من المياة فيصير نهراً كبيراً يجرى فى بسيط من الأرض يكاد لا يتبين جرى الماء فيه لا ستواء أرضــه على أن يتحدر إلى البلد فينقسم فى داخلها على جداول كثيرة فيشق أكثر جهاتهــا ويتشــعب فى داخلها فينتفع به فى مساجدها وسقاياتها ودورها وارجائها وحماماتهــا وســقى جناتها ثم يخرج منها وقد حمل اثقالها وسائر فضلاتها وليس لهذا النهر نظير لصفائه وعذوبه مائه وصفته وبرودة عيونه فى زمن الصيف وسخانتها فى زمــن الشتاء وهو يسخن سريعاً يبرد سريعاً وينهضم سريعاً وهذه لصفات محدودة عند الأطباء ويخرج منه الصدف الثمين الذى يقوم الجوهر ولهذا سمى نهر الجواهر ، ومن منافعه أنه يفتت الحصى التى فى المثانة ويذهب الصئبان من الرأس والقمل من الجســد لم أغتســل بــه وداوم على شربه ويغسل به الثياب دون صابون فيبيضها ويكســوها نقــاوة ورائحة طيبة وتوجد فى السراطين المستعملة فى الدوية وليست توجــد فى غيره إلا نادراً ويخرج منها أنواع الحوت مثيل اللبين والبورى والسلباح

والـــبوقة ذلك كله حوت لذيذ المطعم كثير المنفعة ومنها أن منها ماء العيون والأبار والأنهـــار فميـــاة العيون عذبة صافية باردة فى الصيف سخونة فى الشتاء حين يراد ذلك ومياة الأنهار بعكسها سخنة فى الصيف باردة فى الشتاء فلا يزال الماء الساخن والبارد موجودين فى كل زمان وذلك مما يعين على التطهير والتنظيف. ومنها قرب الملاحة التى عليها من مدر شر الشاطبى على وادى مكس وبينهما من المسافة ثمانية عشر ميلاً ومن العجائب فى هذه الملاحة أنها تحرث كلها بالزرع فتجد الفرادين فى وســـط المـــلح بخضــــرة ناعمة تتمايل خاماتها فضلاً من الله ونعمة وكمعدن الجص والصلصـــال وأنـــواع الحجارة والرمال وذلك على اختلاف أنواعه فتصير يصرفه الناس فى منافعهم .

ومنها خشب الأرز المجلوب لها من جبال بنى يزغة وهى بنحو الثلاثين ميلاً عـــنها يصـــل منه كل يوم أحمال كثيرة فلا يعدم فيها بوجه وقد يعمر العود منه فى الموضع الذى لا يناله الماء ألف سنة وازبدوا يعبر ولا يستاس .

ومـــنها الحطب الكثير الذى يدخلها من جميع جهاتها كجبل بنى بهلول فأنه يصبح كل يوم من أحمال البلوط وفحمه ما لا يوصف كثره .

ومـــنها المحـــرث العظيم الذى بأقطارها سقيا وبعلا وكثرة المجاشر ما ليس على مدينة من مدن المغرب .

ومنها بعدها من أطراف الأرض التى تخاف فيها الفتن والغارات .

ومـــنها اختصاصها بجميع الفواكة وأصنافها وأنواع الخضر والبقول على أختلافها وسائر نوار الأرض وأزهارها حتى لا يشد شيء من ذلك لمن طلبه منها .

ومنها أنه لا يعدم بها ولا بنواحيها صيد سوى كان سائحاً أو طـــــــائراً أو دارجاً .

ومنها قرب العيون السخنة كحمة خولان وحمة أبي يعقوب فإن فيها موفقا للأستحمام والتداوى وقد أعتنى أمير المسلمين أبو الحسن ببناء حمة خولان على وجه محكم لتتم به مصالح الناس ومنافعهم .

ومنها أن حرها وبردها ليس بشديد جداً وقد أعتدل فيها الفصلان فى أوقاتهما فيكون دخول الخريف إلى الشتاء غير متابين الهواء وكذلك كان فصل ينقل من هواء إلى هواء من زمن إلى زمن بالتدريج فلذلك لها اعتدال الهواء فى ارضها وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الأشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وحسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوهم وأبدانهم وأنفتنت أذهانهم وقل ما يخالف بعضهم بعضاً فى الخلقة والسور والجمال والتنظيف حتى فضلوا على غيرهم فىالعلوم والصناعات والمعروقة بأنواع التجارات .

ومنها : أن أهلها فى العادة أقل خلاف على أمرائهم وأكثر طاعة لحكامهم وولاتهم .

ومنها : قربها من وادى سبو الذى تسيل منه جميع القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم وتطلع منه إلى ملتقى واديها وقد كانت دار صنعة لا نشاء القوارب والسفن الصغار وغيرها بالموضع بالحيالات من أرض بنى عبودة التى بقرب ملتقى وادى فاس فى أيام الخليفة عبد المؤمن الموحدى [1]حين أراد أن يتوجه

---

(1) هو عبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكوفى أمير المؤمنين مؤسس دولة الموحدين المؤمنية فى المغرب وإفريقية وتونس ، ونسبته إلى كومية " من قبائل البربر " ولد فى مدينة تاجرت بالمغرب " قرب تلمسان" سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ونشأ فيها طالب علم ، وأبوه صانع فخار وحج ، والتقى بابن تومرت ، فتصادقا وانتهى الأمر بأن ولى ابن تومرت ملك المغرب الأقصى ولقب بالمهدى ، فجعل لعبد المؤمن قيادة جيشه، واختصه بثقته. ولما توفى المهدى اتفق أصحابه على خلافة =

لفـــتح المهدية [1] سنة أثنتين وخمسمائة كذا وجد بخط الفقيه أبى عبد الله محمد بن القاضى أحمد بن ميمون الفشتالى[2] .

= عبد المؤمن ، فتم له الأمر سنة ٥٢٤ هــ . ثم بويع البيعة العامة بجامع " تنميلل " ودعـــى "أمير المؤمنين" سنة ٥٢٦ هــ . ونهض للغزو والفتوح وقاتل الملثمين " بنى تاشفين" فأستأصلهم ، وقتل أخرهم إبراهيم بن تاشفين ودخل مراكش سنة ٥٤١ هــ وجاءتـــه بيعة بعض أهل الأندلس، وأول ما وصله منها وفد من إشبيلية، وكان عاقلاً حازمــاً شجاعاً موفقاً، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهـــتمام بشؤون الدين، محباً للغزو والفتوح، خضع له المغربان " الأقصى والأوسط" واستولى على إشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزائر والمهدية وطرابلس الغرب وسائر بلاد إفــريقية ، وأنشأ الأساطيل وضرب الخراج على قبائل المغرب وهو أول من فعل ذلك هنالك، له أبنيه وآثار مجاهداً، ونقل إلى تنميلل فدفن منها إلى جانب قبر ابن تومرت .

انظــر المزيــــد فى / الاستقصا ١/ ١٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٢٩ ، الكامل ١٠/ ٢٠١ ثم ١١/ ٢٠٩ ، الحـــلل الموشية ١٠٧ – ١١٩ ، الخلاصة الفقية ٥٥، وفيات الأعيان ١/ ٣٠١ ، بغية الرواد ١/ ٨٧ ، جذوة الأقتباس ٢٧٢ .

(١) بالفتح ثم السكون فى موضعين أحداهما بإفريقية والأخرى اختطها عبد المؤمن بن على قرب ســـلا .

انظر مزيد من التفاصيل فى معجم البلدان ٨/ ٢٠٥ - ٢٠٨ .

(٢) هـــو محمد بن أحمد بن عبد الملك أبو عبد الله الفشتالى قاضى فاس ، من العلماء بفقه المالكية والأدب ، وأحـــــد الكتاب البلغاء فى عصره وهو الذى خاطبه لسان الدين ابن الخطيب بأبيات أولها :

" ومن ذا يعدّ فضائل الفشتالى " .

ولاه ســـلطان المغـــرب قضاء فاس سنة ٧٥٦ هــ وكان يوجهه فى السفارة عنه إلى الأندلس، له تأليف فى " الوثائق" مات سنة ٧٧٧ هــ . =

وكذا أمر أمير المؤمنين أبو عنان[1] بأنشاء جفنتين أثنتين بمترل خولان :

إحداهما : شيطى يجر مائة وعشرين محارباً .

والثانى : شلير يجر ستين محارباً .

ودفعاً بوادى سبو إلى أن وصلا إلى معمورة سلا سنة ست وخمسين وسبعمائة كل ذلك على يد ثقته أبى عثمان سعيد بن خرز وقد جلب لمولانا أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله من المرية بيلة من الرخام الأبيض زنتها مائة قنطار

=انظر : الإحاطة ٢/ ١٣٣، الدرر الكامنة ٣/ ٣٣٠ ، الرحلة الورثيلانية ٤٢٩، التعريف بابن خلدون ٦٠ – ٦١ و ٤٤٨ .

(١) هو أبو عنان المرينى فارس بن على بن عثمان بن يعقوب المرينى، المتوكل على الله من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفارس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوباً فى قومه، لفضله وعلمه ، وولاه أبوه إمارة "تلمسان" ثم ثار على أبيه وبويع فى حياته سنة ٧٤٩هـ) . ولما مات أبوه سنة ٧٥٢هـ استتب أمره، فبدأ بإخضاع بنى عبد الواد (وكانوا أمراء زناتة بتلمسان) وانتظم له أمر المغرب الأوسط وعصاه أخ له يدعى " أبا الفضل " فأرسل إليه من قاتله فى جبل "السكسيوى" وجبال "المصامدة" من بلاد السوس ، فأعتقل وحمل إليه فسجنه أياماً ثم أمر بخنقه فى مجلسه سنة ٧٥٢ هـ وقصد إفريقية سنة ٧٥٨ هـ ، فأنتزع قسطنطينية وتونس من أيدى الحفصيين، وبدت له ريبة فى إخلاص بعض قواده، فعاد إلى فاس ، وقتلهم، ومرض أياماً فدخل عليه وزيره الحسن بن عمر الفردودى فقتله خنقاً، لسبب يطول شرحه . وقد ذكر السلاوى فى الاستقصا وقال فيه : كان جهورى الصوت فى كلامه عجله ، عظيم اللحية، تملأ صدره، فارساً شجاعاً يقوم فى الحرب مقام جنده، فقيهاً يناظر العلماء، كاتباً بليغاً شاعراً ، له آثار من مدارس وزوايا .

انظر : جذوة الأقتباس ٣١٤ – ٣١٦، الاستقصا ٢/ ٧٩ – ١٠٢ ، الحلل الموشية ١٣٤ .

وثلاثة وأربعون قنطاراً وسيقت من المرية بالأندلس إلى بلد العرائش إلى أن طلعت بوادى قصر عبد الكريم وجعلت منه على عجلة خشب تجرها القبائل والرؤساء إلى أن وصـــلت على مترل أولاد مخربة الذين على ضفة سبو الوادى المذكور ووسقت فيـــه أيضاً على أن وصلت إلى ملتقى وادى فاس وجعلت منه على عجل الخشب أيضـــاً يجـــرها الناس إلى أن وصلت على مدرسة الصهريج التى بعدوة الأندلس ثم نقـــلت مـــنها بعد ذلك بأعوام إلى المدرسة التى أمر ببنائها إزاء القرويين وهى التى بوســـط صحنها الآن وكان جبلها من المرية سنة خمس وعشرين وسبعمائة فإن قيل كيـــف يتوصل إلى وزنها فأعلم أن الذين جلبوها لما أرادوا تفريغها علم على الماء وفى الجفـــن الذى وسقت فيه ثم فرغت منه ومخن فيه قناطر من الرمل بالوزن شيئاً فشـــيئاً على أن بلغ الماء حد ما علم أولاً فى قاربها ثم فرغ الرمل بذلك وزنها كذا ذكر بعض الشهود الذين حضروا على ذلك ويذكر أنهم كتبوا رسماً بذلك وطواله بـــه أمير المؤمنين أبو الحسن رحمه الله وكذلك فعل بابواب المهدية التى صنعت من حديـــد فى أيـــام عـــبيد الله [1] التى زنة كل واحدة منها ألف قنطار على ما ذكر الـــبكرى وكان الأمير أبو الحسن يدفع الأحمال الكثيرة من خشب الأرز من مترل خولان إلى معمورة سلا على صفة يعلمها البحريون ونهر سبو ينبعث عن عنصر فى مغارة مهولة فى شعراء عافطة ببلاد فازاز إلى أن يمر على بلاد وارثين وهذه العين لا يدرك لها قعر وللبربر المجاورين لها تجاريب فيها .

منها : أن المريض إذا ارادوا أن يعلموا هل يبرأ أو يموت ؟ حملوه لرأس العـــين للموضـــع المهول فيغطسونه فيه حتى يقرب أن يصفر ثم يخرجونه فإن خرج

---

(1) هو عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب .

انظر التفاصيل فى : عبيد الله المهدى ـــ للدكتور / حسن إبراهيم

طبعة النهضة المصرية — القاهرة — ١٩٥٢ م

عـــلى فيه دم يستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فيه دم أيقنوا بهلاكه وهذا عندهم متصـــادق لا ينكر قاله صاحب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، وهذا لا يفعله إلا جـــاهل وإن فعله أحد بأحد فمات فإنه يقتص منه وما سوى ذلك من فصول هذا الباب قد يدرك بالمشاهدة والتجربة وتصيد من وادى سبو هذا الشابل الكبير وهو يطـــلع مـــن معمورة سلا إلى راس عين سبو وتصيد منه الحوت الكبير الذى يعرف بالقـــرب يكون فى زنة الواحدة منه قنطار وأزيد ويوجد فيه أيضاً الحوت المعروف بالشولى تصنع منه الألوان بأنواع النفل فلا تشم له رائحة السمك .

ومها : ميل الناس لسكانها فمنذ سكناها وهى مملوءة بأصناف الناس وأهل الكور والأمصار وأنتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية فليس من أهل بلد ولا أقلـــيم إلا ولهم بها متجر ومنزل وصناعة وتصرف وأجتمع فيها ما ليس بمدينة من مدن الدنيا وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل مـــتجر وســـيقت إليهـــا خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت فيها بركات العالم فقد صار سكناها لأجل ذلك لا عالم أملح من عالمهم ولا رواية أثبت من روايتهم ولا متكلم أجزل من متكلمهم ولا قارى أتقن من قارئهم ولا طبيب أمهـــر من طبيبهم ولا كاتب أضبط من كاتبهم ولا خطيب أبرع من خطيبهم ولا واعـــظ أوعـــظ من واعظهم ولا شاعر أحذق من شاعرهم ولا صانع أصدق من صانعهم ولا قوال أطرب من مغنيهم .

الباب الثانى

فى ذكر من أدارها " فـــــاس "

بالأسوار وذكر جوامعها وما انتهت إليه من الدور والحمامات وما جاء فى الثناء عليها وعلى ساكنها من العلماء المرضيين

قـــال لم تـــزل مديـــنة فاس كلاها الله تعالى من حين أسست دار فقه وعلم وصـــلاح ودين وهى قاعدة بلاد المغرب وفطرها ومركزها وقطبها وهى كانت دار الأدارســـة الحسنيين الذين اختطوها ودار مملكة زناتة وغيرهم من ملوك المغرب فى الإســـلام ونزلها لمتونة فى أول ظهورهم على المغرب ثم بنوا مدينة مراكش فأنتقلوا إليهـــا لقرب بلاد الصحراء ثم أتوا الموحدون بعلهم وأتخذوا دار ملكهم لقربها من بلادهـــم ولكونها فى جوارهم وبين قبائلهم كما قاله صاحب المقياس وغيره ومازال الأمراء والملوك فى أثناء ذلك يزيدون البناء بفاس إلى أن صار الناس يبنون بأرباض المدينـــتين واتصـــلت العمارات من كل جهة إلى إنقراض أيام زناته فأراد منهـــم دونـــاس[1] بن حمامة بن المعز بن عطية بن زيد الأسوار على جميع أرباضيها من كل

---

(1) هو أمير فاس وابن أميرها من قبيلة "مغراوة" من زناتة ، ولى فأساً وأحوازها بعد موت أبيـــه سنة ٤٤٠ هـــ وكانت أيامه أيام هدنة ورخاء وفى زمنه عظمت بفاس وعمرت وقصدها الناس والتجار من جميع النواحى وأدار الأسوار على أرباضها، وبنى المساجد والحمامـــــات والفنادق فيها، فصارت حاضرة المغرب، ولم يشغل من يوم ولى الإ =

جهـــة وبنى بها المساجد والفنادق والحمامات وغير ذلك وصارت مدينة واحدة إلى أن ولى بعـــده أبناء الفتوح وعجيسة فحصن الفتوح عدوه الأندلس وبنى بها قصبة لســكناه بالموضــع المعروف بالكدان وفتح باباً فى العدوة سماه بأسمه وخص أيضاً عجيســة عدوة القرويين وبنى بها قصبة لسكناه بعقبة الصعتر وفتح هناك باباً سماه بأسمـــه وكـــانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما، وكان القتال بينهما فى الموضع المعروف بكهف الوفادين وكثر العرج بسبب ذلك فى أرض المغرب وأشتد الغلاء إلى أن ظهر لمتونة بأطراف المغرب وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله ولما ظفر بـــه كره أن يبقى الباب وأمر بتغيير ذلك وترك أضافتها أيد الله ملكها خرج سور الرميـــلة فى قســـط اليهود لعنهم الله وأشتهر ذلك بينهم فلما هدمت هذه القنطرة أشاع اليهود أن بناءها عليهم حسبما عليهم حفارة السور ليغتنموا أن يكون أثرها عـــليهم وليحرموا المسلمين من أجرها ولم يستطع اليهود بالمبادرة لبنائها وقبح على الأمـــراء أن يكلفوهم بناءها خوف أن يبقى أثرها لهم فأهل النظر فيها بسبب ذلك كـــل ذلـــك تلقيـــناه من جملة شيوخ فاس وما زال كبير لمتونه وأميرها يوسف بن تاشـــفين[1] فى زيارة المساجد وسقاياها وحماماتها وخاناتها إليه فأسقط الناس حرف

= بالبناء ، إلى أن توفى فيها سنة ٤٥٢ هـــ / ١٠٦٠ م .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ١٢١، التعريف بابن خلدون ٤٥٠ .

(١) هـــو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالى الصنهاجى اللمتونى الحميرى أبو يعقوب أمير المســلمين وملك الملثمين سلطان المغرب الأقصى وبانى مدينة مراكش، وأول من دعى بـــأمير المسلمين. ولد فى صحراء المغرب سنة ٤١٠ هـــ /١٠١٩ م ، وولاه ابن عمه أبـــو بكر بن عمر اللمتونى إمارة البربر وبايعه أشياخ المرابطين وجال جوله فى المغرب بجيش كبير فوقى أمره ، واستولى على مدينة فاس وغزا الأندلس، فصالحه ملوكها على الطاعة له ، واستخلفه أبو بكر بن عمر على المغرب سنة ٤٦٣هـــ ، فاستقل به ، =

العين من عجيسة وأدخلوا عوضاً عنها الألف واللام فقالوا باب الجيسة وبقى ذلك إلى الآن وبعد أن طفر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه وتخلى عن المدينة ووليها معنصر ابن عمه إلى أن دخلوها لمتونه وقتلوا زنانة وفى أيام لمتونة هدمت الأسوار التى بأعلى الوادى الكبير بقرب حوض السفرجل والسور الذى أسفله حيث هى الرميلة الذى كان بناه دوناس حين أدار الأسوار على سائر أرباضها وجعل فى ذلك أقواساً بشبابيك من خشب الأرز بالعمل المحكم لدخول الماء

= وبنى مدينة مراكش سنة ٤٦٥ هـ وكتب إليه المعتمد بن عباد سنة ٤٧٥ هـ من إشبيلية، يستنجده على قتال الفرنج، فوصف بجموعه فكانت " وقعة الزلاقة " المشهورة التى انكسر فيها جيش الفرنج الزاحف من طليطلة كسره شديدة سنة ٤٧٩ هـ وبايعه بعد إنتهاء الوقعة من شهدها معه من ملوك الأندلس وأمرائها وكانوا ثلاثة عشر ملكاً، فسلموا عليه بأمير المسلمين وكان يدعى بالأمير وضرب السكة من يومئذ وجددها ونقش ديناره " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وتحت ذلك " أمير المسلمين يوسف بن تاشفين" وكتب فى الدائرة : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وكتب فى الصفحة الأخرى " الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسى" وفى الدائرة تاريخ ضرب الدينار وموضع سكه . وعاد إلى مراكش وهو على اتصال بإشبيلية وغيرها . ثم لم يلبث أن سير الجيوش إلى الأندلس ودخل غرناطة (فى السنة نفسها) وفيها آخر الصنهاجين " عبد الله بن بلكين " فأمتلكها وأخذ ابن بلكين معه إلى مراكش واستولى قائد جيشه "سير بن أبى بكر " على مرسيه وشاطبة ودانية ثم بلنسية وإشبيلية وبطليوس فتم له ملك الجزيرة كلها وشمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس وتوفى بمراكش سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م . وكان حازماً ضابطاً لمصالح مملكته، ماضى العزيمة ، معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم ، خفيف العارضين، دقيق الصوت ، يخطب لبنى العباس .

انظر المزيد فى : الأنيس المطرب ٥ ، الكامل ٩/ ٢١٦، ١٤٥/١٠ ، جذوة الاقتباس ٣٤٢ ، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٤٠٣ ، وفيات الأعيان ٢/ ٣٦٥ .

وخـــروجه وكـــان جعل بين العدوتين قناطر للمجاز لمن فى كل عدوة إلى الأخرى، الأولى قـــنطرة أبي طوبـــة التى جددها الأمير أبو سعيد عثمان[1] رحمه الله . والثانية قـــنطرة أبي بـــرقوقة . والثالـــثة قنطرة باب السلسلة . والرابعة قنطرة الصباغين . والخامســـة قـــنطرة كهف الوفادين . والسادسة قنطرة الرميلة وحين جاء السيل العظـــيم سنة خمس وعشرين وسبعمائة حمل قنطرة السلســـــــلة وما بعدها فأمر أمير المؤمنين أبو سعيد عثمان ببناء قنطرة الصباغين وقنطرة باب فبنيتا على حالتهما الآن وبـــنيت قنطرة الوفادين على يد من تطوع بذلك من المسلمين وبنيت قنطرة الرميلة إلى ألان، وأرجو من الله أن يكون أذخرها لهذا الملك المبارك السعيد وجعلها مـــن حســـناته التى يبقى أثرها ويضاعف أجرها فأنها من الحسنات الطويلة الأمتاع الكـــثيرة الانتفاع وسبب أهمال الأمراء لبنائها إلى أسوار المدينة لما رتب فيها الحفار والســـمار فى أيـــام المخالفـــة وأول هذه الدولة المرينية وإصلاح أمورها وأقدم من قرطـــبة جملة من صناع فبينوا منها كثيراً إلى أن إنتهت إلى ما يذكر بعد أن شاء الله تعالى وفى أيامه صارت العدوتان قطراً واحداً وفى أيام ولده على بنى سور الفوراجة الـــتى بين باب الجيسة وباب اصليتن على يد قاضيه عبد الحق بن معيشة بمال وظفه عـــلى أهل فاس حسبما ذكره صاحب المقياس . وفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

---

(١) هـــو عثمان بن أحمد بن إبراهيم بن على من بنى عبد الحق أبو سعيد المرينى من ملوك الدولـــة المريـــنية فى المغرب وهو ثالث أفخوة الأشقاء من أبناء أحمد بن إبراهيم الذين تولـــوا المـــلك مـــن بعده . بويع بفاس بعد وفاة أخيه عبد الله سنة ٨٠٠ هـــ وكان التصـــرف فى دولته للوزراء والحجاب وفى سنة أيامه استولى البرتغال على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـــ بعد حصار طويل وازداد ضعف الدولة المرينية، واستمر أبو سعيد إلى أن قتله وزيره عبد العزيز اللبانى .

انظر : جذوة الاقتباس ٢٨٩ ، الاستقصا ٢/ ١٤٤ ، الضوء اللامع ٥/ ١٢٤ .

أمـــر الأمير عبد المؤمن بن على[1] بهدم أكثر الأسوار كذلك إلى أن بدا ببناء ما هـــدم يعقـــوب المنصور وكمله ولده أبو عبد الله الناصر وأقام ببناء القصبة التى بالوادى واتفق أهل السلوك الذين دخلوا مصانع الملوك بسائر الأقاليم أنه لا نظير لها لأجل الوادى الذى يشقها وكذلك بنى باب الشريعة على حالها الآن كما بنى أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام الـــبرج العظـــيم الذى هناك وكتب فيه أسمه وبفاس الآن من الأبواب باب الفتوح وبـــاب الخوخة وباب بنى مسافر وباب الجيسة وباب اصلتين وباب الشريعة وهى بـــاب يدخلها الفارس بالعلم العالى والرامح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح لارتفاعها وسميت باب المحروق من أجل العبيدى القائم بجبال وزان لما ظفر به وقتل وعلق راسه على باب الشريعة المذكورة واحرق جسده فى وسطها وذلك يوم ركـــبت مصـــاريعها بأمر أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور سنة ستمائة وباب المطمر المتصلة من أبوابها بالقصبة وباب الوادى التى هى لدخول الخلفاء وخروجهم المتصـــلة أيضاً بالقصبة وباب الحديد وباب الزيتون بن عطية وباب الجيزيين المفتوح مـــنها خمســـة وســـائرها غلق فى أيام المجاعة وإنتهت مدينة فاس فى أيام المرابطين والموحديـــن من بعدهم من الغبطة والرفاهية والدقة والأمن والعافية مالم تبلغه مدينة مـــن مـــدن المغرب لا سيما فى زمن المنصور الموحدى وولده محمد الناصر وكانت

---

(1) هـــو عـــبد المؤمن بن على بن مخلوف بن يعلى بن مروان أبو محمد الكومى أمير المؤمنين مؤســـس دولة الموحدين المؤمنية فى المغرب وإفريقية وتونس. نسبته إلى كوميه (من قبائل البربر) ولد فى سنة ٤٨٧ هـــ/ ١٠٩٤ م ، ومات سنة ٥٥٨ هـــ / ١١٦٣ م. انظر المزيد فى : الاستقصا ١/ ١٣٩ ، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٢٩ ، الكامـــل ١٠/٢٠١ ، ١١/٢٠٩ ، الحلل الموشيه ١٠٧ – ١١٩ ، الخلاصة النقية ٥٥، جذوة الاقتباس ٢٧٢ .

المساجد بها سبعمائة وخمسة وثمانين ودور الوضوء أثنتين وأربعين وسبعين ودور السكنى تسعاً وثمانين ألفاً ومائتين وستة وثلاثين والمصارى سبعة والحوانيت تسعة آلاف وأثنتين وثمانين وقيسارية واحدة فى كل عدوة منها ودار السكة واحدة فى كل عدوة منها والأطرزة ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ودور عمل الصابون سبعاً وأربعين ودور الدباغين ستاً وثمانين ودور الصناع مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس أثنى عشر ودور عمل الزجاج غحدى عشرة وكوش الجير مائة وخمساً وثلاثين وأفران الخبز ألفاً ومائة وسبعين وأحجار عمل الكاغيد أربعمائة كل ذلك بداخل المدينة ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة نقل عن المشرف على ابن عمر الأوسى قال نقلته من خط ..... * مشرق المدينة فى أيام الناصر بن المنصور ..... ولو مر بالمدينة البيضاء والملاخ وما هو إلى ذلك من الكهوف مقيم الآن بفاس لكانت تنتهى لأكثر من ذلك والله أعلم . وكان إذ ذاك يجنبى الوادى الكبير من حيث يبتدئ دخوله إليها إلى أن يخرج منها دار الصباغين وحوانيتهم ودور الدباغ والصابون وحوانيت الخنافين والقصابين والسفاجين والمواضع المعدة لطبخ الغزل والفوالين وغيرهم ممن يحتاج إلى الماء وفى أعلا ذلك اطرزة للحاكة ولم يكن بالمدينة واد يظهر للناس حاشا الوادى الكبير وباقى أنهارها يبنى عليها الحوانيت والدور والمصارى ولم يكن بداخلها بستان ولا رياض عداً زيتون بن عطية وخرب أكثر ذلك فى أيام المجاعة والفتنة التى كانت فى أيام العادل وأخيه المأمون وذلك عشرون سنة إلى أن ظهرت الدولة المرينية أطال الله بقاءها فانجبرت البلاد وتأمنت الطرق والعباد .

---

* بياض فى الأصل .

بناء جامعى
القرويين والأندلس

وأمـــا بناء جامعى القرويين والأندلس وذكر الزيادة فيهما إلى هذا الوقت والحـــين فذكر أبو القاسم جنون وغيره فى تاريخ فاس أنه لما كثر الوارد ون عليهما فى أيـــام يحيى بن محمد بن إدريس [1]كان ممن قدم عليهـــا من القيروان محمد بن عبد الله الفهرى القروى ونزل بعدة القرويين مع أهل بلده الذين وفدوا معه فمات وتـــرك بنـــتين وهما فاطمة المدعوة بأم البنين ومريم وتحصل لهما بالميراث مال كثير طيب ورغبتا أن تصرفاه فى وجوه من البر فعلمتا أن الناس قد احتاجوا لبناء جامع كبير فى كل عدوة من فاس لضيق الجامعين القديمين بالناس فشرعت فاطمة فى بناء جامع عدوة القرويين ومريم فى بناء جامع الأندلس .

---

(1) هـــو يحيى بن محمد بن إدريس بن إدريس الحسنى ملك من الأدارسة أصحاب مراكش كانت عاصمته فاس ولى بعد وفاة أخية على سنة ٢٣٤ هـــ بعهد منه وحسنت سيرته وكـــان محـــباً لـــلعمران ، بنى بفاس حمامات وفنادق وأقبل أهلها على البناء فى عهده وقصـــدت من الأندلس وإفريقية وسائر بلاد المغرب، فضاقت بسكانها، فبنيت الأرباض "الضواحى" بخارجها .وفى أيامه بنى جامع القرويين توفى بفاس سنة ٢٥٠ هـــ / ٨٦٤م.
انظـــــــر المزيد فى : الاستقصا ١/ ٧٦ ، جذوة الاقتباس ٣٣٤ ، تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥ ، الأنيس المطرب القرطاس ٨ .

جامع القرويين

أمـــا جامع القرويين فكان الشروع فى حفر أساسها والأخذ فى أمور بنائها يـــوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين وكان موضعه الـــذى بنى فيه أرض لعمل الخضر وفيه أشجار لرجل من هوارة كان قد جاز ذلك أبـــوه بوجـــه صحيح اسست المدينة فأشترها منه فاطمة المذكورة ودفعت ثمنها من مالها الحاصل لها من إرثها من أبيها وتطوعت ببناء الجامع المذكور فحضر فى أرضه وأخذ مننها التراب والكدان لبنائه وحفر بها بئر لأخذ الماء لبنائه ونصبت قبلته على نحـــو قبلة جامع الشرفاء الذى أسسه الإمام إدريس رضى الله عنه بعد مشورة أهل العلم واجتهادهم فى ذلك وبنى من أربع بلاطات من قبلة الوجوه فى كل بلاط أثنى عشـــر قوســـاً مـــن شرق على غرب وجعل محاربه بمقدار البلاط الذى أمام الثريا الكبرى الآن وجعل مؤخرة صحن صغير بمؤخرة صومعة حيث العترة الآن وتم على نحو ما اراته وذلك بمطالعة الأمير يحيى ثم صلت فيه وشكرت الله تعلى الذى وقفها لذلـــك ولم يـــزل على نحو ما بنى فى أيام الأدارسة إلى أن كثرت العمارات واتصل البـــناء فى أربـــاض المدينة من سائر الجهات وجرى زناتة بأرض المغرب سنة سبعة وثلاثمائة فأزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكـــبره وصـــنع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول خطيب خطب به الشيخ الصـــالح أبـــو عبد الله محمد بن على الفارسي، وقيل سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وأن الـــذى أقام الخطبة إذ ذاك هو الأمير حامد بن أحمد الهمدانى [1]عامل عبيد الله

---

(1) ورد ذكره فى اتعاظ الحنفا للمقريزى .

الشـــيعي عـــلى بعـــض بلاد المغرب بعد إن كان تغلب عليها مصالة بن حبوس[1] القـــائم بدعوة الشيعي على بعض بلاد المغرب، ولم يزل ذلك على أن تقوى ظهور زناتـــة بالمغـــرب لاستدعاء الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد ملك بر الأندلس لكبرائهم ورؤسائهم وبانتشار وصاياه ووصله الأخبار منهم ولهم ومهاداتهم واكرام ســاداتهم وقضـــى ما فاتهم وحيل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم ممراً لمن عجز رجالـــه فويا لمن ضعف بماله إلىأن هدت إليه افئدة كثير منهم بين مصحح فى ولايته ومســتجيب لدعوتـــه ومغتنم لعطيته مستعين بقوته على مدافعه من قاهر ركنه من الأدارسة والشيعة فقام زناتة بدعوة الناصر لدين الله وتغلبوا على بعض بلاد المغرب وبايعـــه أهل مدينة فاس فى من بايعه حسبما ذكره صاحب المقتبس[2] فولى عليهم عـــاملاً له من زناتة يعرف بأحمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي سعيد الزناتي وكان من

---

(1) هو مصالة بن حبوس المكناسي أمير بربرى ، كانت له رياسة " مكناسة" القبيلة وبلادها، فى الشطر الثانى من المائة الثالثة الهجرية، وعظم أمرها فى أيامه فتغلبت على قبائل البربر بأنحاء تازا إلى الكاى ولما استولى عبيد الله المهدى على المغرب الأوسط وزحف مصالة إلى المغـــرب الأقصى سنة ٣٠٥ هـــ واستولى على فاس وعلى سجلماسة واستزل يحيى ابن إدريس من إمارته بفاس إلى طاعة عبيد الله وأبقاه أميراً على فاس. وعقد لابن عمه موســـى بن أبي العافية أمير بلدة مكناس على سائر ضواحى المغرب وأمصاره وقفل إلى القيروان فقتله محمد بن خزر الزناتى سنة ٣١٢ هـــ / ٩٢٤ م .

انظر المزيد فى : تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٣٤ ، البيان المغرب ١/ ١٩٧ .

(2) هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان الأموى بالولاء أبو مروان مؤرخ بحاث من أهل قرطبة كان صاحب لواء التاريخ فى الأندلس أفصح الناس بالتكلم فيه وأحسنهم تنسيقاً له . من كتبه " المقتبس فى تاريخ الأندلس " ولد سنة ٣٧٧ هـــ / ٩٨٧ م ، ومات ٤٦٩ هـــ / ١٠٧٦ م .

انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ١٦٨ ، جذوة المقتبس ١٨٨ .

أهــل الفضل والدين فكتب إلى الناصر ليستأذنه فى بناء الجامع وإصلاحه والزيادة فيه لحاجة الناس لذلك فأذن له وبعث له بمال كثير من أخماس غنائم الروم وأمره أن يصــرفه فيه فأصلحه وزاد فيه أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة مــن الجــوف فى موضع الصحن الذى كان فيه بلاط واحد بعد أن هدم الصومعة الــتى كانت به لكونها متطاولة الأشراف وبناها وهى الصومعة التى بالجامع الآن . ولمــا شرع فى بنائها جعل سعة كل وجه منها أحد وعشرين شبرا ويصعد لها على مائة درجة ودرجة وجعل بابها من جهة القبلة وغشيت بعد ذلك بصفائح النحاس الأصــفر وتم العمل فى بنائها على يد أحمد بن ابى بكر الزناتى فى شهر ربيع الأول مــن ســنة خمــس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى التربيعة المنقوشة بها من جهة الصحن وجعل فى أعلاها قبة صغيرة ووضع فى دوراها تفافح مموهة بالذهب فى زج مــن حديد وركب فى الزج المذكور سيف الإمام إدريس بن إدريس رحمه الله الذى أسس المدينة وسبب جعله هنالك أن الأمير أحمد بن أبى بكر المذكور، ولما فرغ من بنائها اختصم إليه بعض حضرة الإمام إدريس فى السيف المذكور وطلب كل واحد منهم أن يمتاز به ويحوزه لنفسه وطال النزاع فيه قالوا وما تصنع به إذا تركناه لك . فقــال لهم أجعله فى أعلا المنارة تباركاً به وليكون لكم ذكر بسببه فقالوا قد وهبناه لـــك من طيب أنفسنا فجعله فى دوره الصومعة وجعل تحت القبة المذكورة قبة أكبر مــنها الجــلوس المؤذنين لا شاعة الأذان فى أوقاته وكان فيها بيت الراعى منهم لاوقات الليل واتصداع الفجر إقامة الأذان وبنائه يقتدى المؤذنون بصوامع المدينة يخلدونه على العادة المتقلة من قديم الزمان ولهم بمواضع منها بلاطة رخام موضوعة هــنالك بالحكمــة وفى وسط كل بلاطة قائم يستدل بصدود ظله على خطوط فى الــبلاطة بطــول أزمان النهار ومرور ساعته وقد نصبها أهل العلم بالهيئة عن نظر وموافقة وهى لهم فى أفضل الهدايات وفى عطفات أدراجها سرج زاهرة الضياء يمر

عليها الليل كله يستعان بها أيضاً لرعى الفجر واجزاء الليل ولم تزل كذلك إلى أن ولى القضاء بالمدينة الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر أيوب بن كنون . فعمل فى أيامه المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك بدنا من الفخار بالقبة العليا فيه الماء وجعل على وجه الماء مجرى من نحاس فيه خطوط وثقات يخرج منه الماء بقدر معلوم إلى أن يصل الخطوط ، فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار فى أيام الغيم ولياليها وذلك فى سنة خمس وثمانين وستمائة ثم غفل عنه وأهمل .

وفى السنة المذكورة شرع فى إصلاح الصومعة المذكورة وتبيضها بالحض والجير بعد أن سمر فيها من خارجها ثلاثة قناطير وربع قنطار ونصف ربع قنطار من مسامير الحديد ودلكت بعد تبيضها حتى صارت كالمرأة المسفولة بعد إن كان الطير على الصحن وانتقل إليها بيت المرعى للأوقاف وجلوس القومة بها .

وأما المبخانة التى صنعت فى هذه الغرفة لمعرفة الأوقات فإن الشيخ المعدل أبو عبد الله محمد الصنهاجى أحدثها هنالك ورسمها له أبو عبد الله محمد بن الصدينية الفرسطونى وتطوع بعض المسلمين بالأنفاق فيها سنة سبع عشرة وسبعمائة وذلك أنه جعل فى ركن الغرفة عن يسار المستقبل مجناً من خشب الأرز وجعل فى داخله بدنين كبيرين من فخار أحدهما أعلى من الأخر وجعل الماء فى الأعلى منهما وبأسفله أنبوب من نحاس محكم العمل يهبط منه الماء فى البدن الأسفل بقدر معلوم وجعل فى طرف الجنح مفطساً وجعل فى جانبى التفطيسة مرسوماً فيهما أيضاً الساعات ودفائقها وأوقات الليل والنهار وجعل المسطرة معلقة فى [1] .... خارجاً من الجنح يجرى فى حفر التفطيسة طالعاً وهابطاً وجعل على وجه الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل حسبما مجوفاً من نحاس على هيئة الأطرقة

---

(1) بياض فى الأصل .

معلقاً فى الطرف الداخلى على العلو فغذا طلع الجسم بطلوع الماء الذى يجتمع فى البدن الأسفل طلع طرف [1] .... الخارج من الطفيسة وطلعت بطلوعه المسطرة كما كانت ثم غفل عنها وأهملت إلى أن تقدم للنظر فى الأوقات أبو عبد الله محمد ابن العربى سنة سبع وأربعين وسبعمائة فجدد المجانة على وجه الاتقان أفضل من الأول ولم يزل يجتهد فى ذلك إلى صدر إيالة مولانا أبى عنان رحمه الله فأكثر الاجتهاد فى خدمته وجعل خارج الجنح المذكور قبلة المستقبل دائرة وعليها شبكة الأسطرلاب ورسومه تدور ومتى طلعت المسطرة المذكورة يعرف بها أيضاً أوقات الليل والنهار وأعد هناك مع ذلك رمليات لاختبار الأوقات وجملة الاسطرلابات فوقف ذلك على من ينظر فيه أجزاء الليل والنهار وصعد مولانا أبو عنان رحمه الله الصومعة ليعتبر فى المدينة وترتيبها ووقف المجانة وما أتصل بها فأستحسن ذلك وأنعم على الناظر فيها بمرتبة وسع الله عليه ليستعين به على القيام بشرائع الإسلام وذلك فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، وأمر بأثر ذلك أن تجعل بأعلا الصومعة المذكورة صارية ينشر فيها علام فى أوقات صلاة النهار فنار فيه سراج زاهر الأوقات صلاة الليل ليستدل بذلك من بعد عن المدينة ولم يسمع النداء وفى ذلك اعتناء بأمور الأوقات وبما يتعلق بها من وجوب الصلاة وما يترتب عليها من الحقوق ووجوه العادات والعبادات . ها أبيات فى ذلك :

نور به علم الإيمان مرتفع	للمهتدين به للحق من بشر
يأتون من كل أوب نحوه وهم	مبينا لا نسلاخ الليل عن نهار
روح من الماء فى جسم من الصفر	مولد بلطيف الحسن والنظر

[1] بياض فى الأصل .

مستعبر لم يقف عن عينه أبـــدا ولم يبت من ذوى ضغن على حذر
وفى أعاليه حسبان يفصـــــله للناظرين بلا ذهن ولا فكـــر
إذا بكى دار فى احشـــائه فلك حنا فى المسير وإن لم يبك لم يدر
مترجم عن مواقيت يخبرنـــا بها فيوجد فيها صادق الخبـــر
تقضىبه الخمس فى وقت الوجوب وإن غطى على الشمس ستر الغيم والمطر
وإن سهرت الأوقات تورفنـــا عرفت مقدار وقت السمر والســهر
محدد كل ميفـــات تخيره ذوو التمييز للأسفار الحضـــر
مخرج لك بالأجزاء ألطفهـــا من النهار فوت الليل والسحر
نتيجة العلم والأفكار صـــورة يا حبذا أبدع الأفكار فى الصور

وقـــد صـــنع أبو عنان رحمه الله مجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرســته الجديــدة التى أحدثها بسوق القصر من فاس وجعل شعار كل ساعة أن تســقط صـــنجة فى طاس وتنفتح طاق وذلك فى أيام آخرها الرابع عشر لجمادى الأولى مـــن عـــام ثمانيـــة وخمسين وسبعمائة على يد موفقته الحسن على بن أحمد التلمسانى المعدل .

وأمـــا القبة التى بأعلى العنزه فإنه لما تغلب المظفر بن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد على بدينه فاس بعد مناوشته سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بنى القبة المذكـــورة ونصـــب أعلاها طلسمات وتماثيل كانت قبل ذلك على رأس القبة التى كـــانت باطلاً المحراب الأول بالجامع المذكور مما صنعه الأوائل ومنه ما صنع فى أيام الشيعة فجعل الطلمسات على أعمدة من حديد منها طلسم الفأر على صورة الفأر فكان الفأر لا يدخلها أبداً ولا يعشش فيها وإن دخلها أفتضح وقتل، ومنها طلسم العقـــرب وهـــو على صورة طائر فى سقاره شبه ذنب العقرب فكانت العقارب لا تدخـــلها أبـــداً وإن دخلت أفتضحت وإن دخلت فى ثوب أحد خمدت لا تتحرك

وفيهـا طلســم فى طفافيح من نحاس للحية فلا تدخلها حيه وإن دخلت أفتضحت وقتلت وما يوجد فيه من الحيات فهى من عمار الجن وهذا لا ينكر لأن الله سبحانه وتعــالى أجرى عادته فى ارتباط بعض الأشياء ببعضها إذا كانت فى وقت مخصوص ولا يعلم قط على قديم الزمان وحديثه من لدغته عقرب ولا حية وقد تعطل ذلك كلــه مــنذ أعوام { وسنين * } والبيله المستطيلة عن يسار الخارج من باب الجفاة الجوفية فإن المظفر بناهما وجلب الماء إليهما من وادى حسن الذى بأعلا المدينة من ناحيــة باب الحديد وأما الذى صنعه المظفر بن المنصور [1] بعد المنبر الذى صنع فى أول ظهور زناتة فكان من عود الأبص والعناب وغيرهما وكان مكتوباً عليه :

---

* إضافـــة من عندنـــــــا .

(1) هــو عبد الملك المظفر بن محمد المنصور بن عبد الله بن أبي عامر المعافرى أبو مروان ثانى أمراء الأندلس من الأسرة العامرية. كان فى أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه فى الحجابة للمؤيد الأموى (هشــام بن الحكم) بقرطبة ثم كان مع أبيه فى غزوته التى مات بها (فى مدينة سالم) ولما شعر أبوه بدنوّ أجله رده إلى قرطبة وأوصاه بضبطها فأسرع إليها وجاء نعى أبيه ، فدخل على المؤيد فأخــبره ، فخلع عليه وكتب له بولاية الحجابة مكان أبيه سنة ٣٩٢ هـــ . فقام بأمور الدولة كبيرها وصغيرها وأسقط عن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة " الملك المظفر بالله " وعاد المؤيد إلى انزوائه . أحبه أهل الأندلس وأزدهرت البلاد فى عهده حتى قالوا عنه : إنـــــه " لم يولد بالأندلس مولود اسعد منه على أبيه وعلى نفسـه وحاشيته وبلاده " وكان أشد الناس حيــاءاً ، فــإذا دخل الحرب فهو أسد ، حطماً وشدة وكان داهية حازماً ولى الحجابة ـــ بل الإمارة أو السلطة المطلقة ـــ وملوك الإفرنج يرتقبون الخلاص من أبيه ، ويتحفزون لنقض ما كان بينهم وبينه من مسالمة فى الثغــــــور، فجهز الجيوش وقاتل من قاتله ، فهابوه وحضر أحدهــم شانجـــــــــه Sanche III Le Gland إلى قرطبة مسالماً سنة ٣٩٤ هـــ فاصــطحبـه عـبد الملك معه فى اقتحامه جليقـــه Galuce وظل على المسالمة بعد ذلك باســتعداده لحربه ، فسابقه بالغزو سنة ٣٩٧ هـــ وقهره وعاد إلى قرطبة. وكان قليل بضاعة العلم، فلــم يكن للأدب فى أيامه ما كان له فى أيام أبيه . وقال ابن حيان : كان مــائلاً إلى=

" بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم هذا ما أمر به الخليفة المنصور سيف الإسلام عبد الله هشام المؤيد بالله أطال الله بقاؤه على يد حاجبه عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر وفقهم الله تعالى " وذلك فى ثمان وثمانين وثلاثمائة فكان يخطب عليه على أيام على بن يوسف بن تاشفين فترك صنع الذى بها الآن على يد قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي ولم يتم فى ايامه وتمم بعد صرفه عن قضاء فاس على يد القاضى بعده أبي مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي وصنع من عود الصندل والأبنوس والتاريخ والعناب وعظم العاج والذى صنعه ونجره الشيخ الأديب ابو يحيى العتاد وكان ممن عمر عمراً طويلاً حتى زاد على المائة سنة ، وكان إماماً فى اللغة والشعر وروى عنه جملة من أهل فاس وغيرها ، وكان جملة النفقة فيه مال الأحباس المستخرج من الوكلاء عليه ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة وكان له غشاءان أحدهما من جلد معزى والثانى من خيرة كتان يزالا عنه فى كل يوم جمعة وذلك فى شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة حسبما كتب على ذروته بالعاج .

= مجالسة الجفاة من البرابر والإفرنج، منهمكاً فى الفروسية وآلاتها إلا أنه تمسك بمن كان يألفهم أبوه " من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدل وتاريخي وغيرهم " كما يقول ابن بسام : وقررهم على مراتبهم ولم ينقصهم سوى الأختلاط به وحضور مجالس أنسه فى جملة خاصته، وكان محباً لإظهار أبهة الملك والتأنق فى مراكبه هو واصحابه، بحلى الفضة المرصعة بالذهب ، وفيه ميل إلى اللذات ، غزا الإفرنج سبع غزوات ومات فى السابعة منها بمنزلة أم هانئ بقرية من أرملاط Guadimellato بعلة الذبحة وقيل مسموماً سنة ٣٩٩ هـ ، قال ابن عميرة : كانت ايامه أعياداً .

انظر المزيد فى : جذوة الاقتباس ٢٧١، المغرب ١/ ٢٠٧، الذخيرة م ١ ج ١ ٥٥-٦٦ ، البيان المغرب ٣/٣ ، بغية الملتمس ١٠٦ .

الخطباء والأئمة

بجامـــــع القرويين

والخطـــباء الذيـــن خطـــبوا فيه عند صنعه فى أخر دولة لمتونة وفى الدولة الموحدية وصدر الدولة المرينية أطالها الله تعالى إلى زماننا هذا أولهم الخطيب أبو محمد المهدى بن عيسى وكان من أحسن الناس خُلقاً وخَلقاً وأفصحهم لساناً وأكثرهم بيانــاً وكـــانت موعظته تؤثر فى القلوب والأخلاق وكان يخطب فى كل يوم جمعة خطـــبة لا تشـــبه أخرى فأقام يخطب مدة خمسة أشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصـــرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح أبا الحسن بن عطية لأجل حفظه اللسان البربرى لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من كان يحفظ التوحيد باللســـان الـــبربرى فخطـــب به إلى أن توفى فى ثامن ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وخمســـمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الورع أبو محمد يشكر بن موسى الجراوى وهـــو أحـــد أشياخ المغرب فى الدين والفضل والزهد والورع والمجاهدة والتقشف والإيثار والصدقات كثير والقيام بالليل لاسيما فى رمضان قيل له ذات ليـــــلة لـــو روحت نفسك قليلاً وأعطيتها حظها من النوم لكان أرفق لك . فقـــــال : أنما أطلب راحتها فى الآخرة ثم أنشد :

لا تجعلن رمضان شهر فكاهـــــة تلهيك فيه من الحديث فنونـــه

وأعلم بأنك لا تنال ثوابـــــه حتى تكون تصومه وتصونـــه

وروى عـــنه أن أحـــد عمال الموحدين بفاس كتب لمراكش أن أبا محمد يشـــكر كان يدعو للخلافة فوصل الخبر بذلك إلى الخليفة فى حال خروجه فبعث

من حينه فأن يشخص وكان من الواقفين بين يديه أحد الصقلب وبيده طبرزين من حديـــد فـــأخذه منه وأمسكه بيده وقال لمن حضر بهذا اقتله فقدر أنه ضرب جبهة نفسه بطرق الطبرزين فأنبعث من الضربة دم كثير فبادر الأطباء بقطع دمه . بجملة من الأدوية وأنواعها فلم ينقطع وكان ممن حضر عند الخليفة أحد الصلحاء فتفرس فى ذلـــك وقـــال للخليفة: إن كنت هممت بسوء فتب منه فتذكر غشسخاص أبي محمد يشكر فتاب من ذلك وبودر برد الذى بعث لاشخاصه فأنقطع الدم من حينه وكان له نفعنا الله به غنم وماشية كثيرة ببلاده التى نشاء بها ورثها عن أبيه ، وكان متصـــدقاً بكثير منها وكان يؤم ولا يخطب لأنه كان أعجمى اللسان شديد العجمة فقـــدم ليـــنوب عنه فى الخطبة خطيباً الفقيه الزاهد أبا عبد الله بن زيادة الله المزنى وانفـــرد بالإمامـــة ثم توفى أبو عبد الله بن زيادة الله فى ثالث وعشرين من جمادى الأولى ســـنة اثنـــتين وسبعين وخمسمائة ، فخطب بعده الفقيه أبو القاسم بن حميد بأســـتخلاف أبي محمـــد يشكر له فى ذلك ، وتوفى أبو القاسم بن حميد يوم الأثنين الرابع عشر لشهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة فخطب بعده الفقيه الصالح الـــورع أبو عمران موسى المعلم لكتاب الله تعالى باستخلاف أبي محمد يشكر له فى ذلك وكان أبو عمران هذا يعلم الصبيان بالمكتب الذى بقنطرة أبي رءوس وكان فى الخطـــبة داخلته دهشة وأطلق صبيانه ثم أخذ فى البكاء والدعاء وقال : اللهم لا تفضحنى بين عبادك يا أرحم اراحمين ولما نادى المؤذن يوم الجمعة لبس أحسن ثيابه، وســـار إلى الجـــامع فقعد فى حجرته حتى خلا الأذان فقام وخطب ولم يتوقف ولم يتلجـــلج ثم دخل المحراب، فأتى بالحكمة وفصل الخطاب فى قراءته فبكى كل من حضـــر فلما تمت الصلاة أقبل الناس إليه يقبلون يديه ويتبركون به ولم يزل خطيباً عـــلى أن وصل الفقيه القاضى أبو محمد عبد الله بن ميمون الهوارى فكان أول سؤاله لأهـــل المدينة عن خطيب جامع القرويين فذكر له فيه خير وأثنى عليه كثيراً ، فلما

جاءت الجمعة راءه فلم تعجبه صورته واستشنعها وقال فيه فولاه فقال له بعض من حضره لو سمعت خطبته لا عجبك فلما سمع خطبته بكى وطلب منه المغفرة والدعاء وكـــان سريع الدمعة كثير الخشوع الغالب عليه فى أحواله الخوف، وتوفى أبو محمد يشكر فى الحادى والعشرين لذى القعدة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وأقام أماماً بجامع القرويين أربعين سنة لم يسه فى ذلك لشدة حضوره فى صلاته ولم يترك عقباً ، وبنو يشكر الذين بفاس الآن ليسوا من عقبه وأنما اشتركوا فى الأسم وأجتمع لأبى عمران الخطبة والإمامة إلى أن توفى فى عشرين من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة فخطب بعده ولده الفقيه أبو محمد عبد الله وسنة يوم ولى ثمان عشرة سنة وكان له حظ وافر من الجمال والعلم والدين والفضل والورع وحسن الصورة لم يكن لـــه صبوة فى صغره ولم يزل مشتغلاً بطلب العلم منقطعاً للعبادة ولما مرض والـــــده أبو عمران قيل له أستخلف ولدك للصلاة فقال أن علم الله فيه خيراً فهو يستخلفه فـــلما تـــوفى أبو عمران وحمل على قبره ووضع على شفيره للصلاة رضى الناس بالـــبكاء وطلب من يصلى عليه ، فقال قاضى البلاد لولده : تقدم فصل على أبيك فتقدم وصلى عليه وأنصرف الناس وقدم فى موضع أبيه وأستحسنه الناس، ولما أتى الناصـــر بـــن المنصور إلى مدينة فاس بعث إليه ليراه فوصل إليه وسلم عليه وبقى يحادثـــه إلى وقـــت الظهـــر ، فقال له قم فصل بنا ثم قال له الناصر من تركت فى موضعك للصلاة بالناس فقال تركت من هو خير منى وهو معلمى الذى قرأت عليه القرآن وذلك لأنه لما وصلنى رسولك تخيرت فى أمر من يتقدم لذلك فقلت لا أعلم مـــتى يكون الرجوع هل بالقرب أو بالبعد ثم تذكرت قول الرسول عليه السلام " مـــولاك مـــن علمك آية من القرآن فأعلمته بالقضية وأستخلفه فى مكانى فقال له الناصـــر جزاك الله خيراً ثم أمره بالأنصراف وأتبعه مملوكاً بجملة ثياب وصرة فيها ألـــف ديـــنار فرجع إلى الناصر وشكره ودعا له وقبل منه الثياب واستعفاه فى أمر

الدنــانير فأعفاه ولم يزل خطيباً وإماماً إلى أن توفى فى يوم الحادى عشر لرجب سنة إحــدى عشر وستمائة فخطب بعده الفقيه أبو محمد عبد الله القضاعى المشار إليه بأســتخلاف وقــت مرضــه فأنتقد عليه وطعن الناس فيه أنه يبعث صبيان مكتبه للنساء وطالع فى ذلك من له النظر العام فقال إن الذى قدمه للصلاة أقر بين يدى الناصــر أمير المؤمنين أنه خير منه فأتركوه على حاله فترك أبو محمد المكتب وصار معتكفاً فى الجامع ويسكن فى الدار الموقفة على أئمة الجامع إلى أن توفى يوم الخميس الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس عشرة وستمائة فخطب بعده الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشبلى وكان من أهل العلم والدين والفضل وكان له صــوت حسن ومعرفة بالأوقاف، توفى سنة تسعة وعشرين وستمائة فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الحاج أبو عبد الله محمد بن عبد الله المدعو بالخطيب توفى سنة خمــس وثلاثين وستمائة ، فخطب بعده الشيخ الفقيه الصالح الورع أبو محمد عبد الغفــار ستة أشهر وتأخر لنفسه وكان سبب تأخره أن أحد الحساد أشاع عنه أنه يــنون السلام، فيقول السلام عليكم وبلغه ذلك فأستدعى جماعة من وجوه المدينة وقــال لهم إنه بلغنى أنه يقول أنى أنون السلام وبالله ما فعلت ذلك قط ولا كنكم أنظــروا لأنفسكم من يكون عوضاً عنى وبالله الذى لا أله إلا هو لا تقدمت بأحد أبــداً فخطب بعده الشيخ الورع أبو الحسن على المعروف بابن الحاج يحكى أنه لما تأخر أبو محمد عبد الغفار رغب الناس فى الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله القشتالى أن يــنظر لهــم خطيب فوعدهم أن يستخير الله تعالى فى من يصلح لذلك فرأى فى مــنامه النبى صلى الله عليه وسلم يشير عليه بأبى الحسن المذكور فلما كان الصباح جاء إليه الناس الذين وعدهم ، فقال لهم الشيخ أبو محمد عليكم بابن الحاج فأمتنع ثم رغــب المــرة بعد المرة وأمتنع . وقال لا ينبغى أن يكون السكنى عوض الإمامة وتورع عن ذلك ، فقيل له إن لم تسكنها تعطل حبساً المجس لذلك فقال : أمهلونى

لأنظر لنفسى مخرجاً، ثم أجاب لسكناها على أن يكون يخيط حصر الجامع ورأى أن ذلـــك عوضـــاً عن السكنى والله ينفعه بذلك، توفى سنة ثلاث وخمسين وستمائة . فخطب بعده الشيخ الفقيه المشاور الورع أبو عبد الله محمد بن يوسف المزدغى ثم قـــام ولـــده عوضاً عنه ، وكان لما دعى الإمامة استرجع ثلاث مرات ، فقيل له لما ذلـــك ؟ فقال : أنه أخبرنى الشيخ الحافظ المحدث أبو درى الحسنى وأنا أروى عليه كـــتاب الأحكام فى الحديث النبوى يوم توفى الفقيه أبى محمد بن موسى المعلم وولى القضاعى عوضه ونظر إلى ملياً ثم قال لى : يا محمد إنك تلى الإمامة للصلاة بالناس فى جـــامع القـــرويين وذلـــك فى أخر عمرك ، فلما دعيت للإمامة تذكرت مقالة الشـــيخ وعلمت أن أجلى قد قرب، فاسترجعت واقام أبو عبد الله محمد المذدغى إمامـــاً وولده أبو القاسم خطيباً إلى أن توفى أبو عبد الله محمد فى تاسع ربيع الأخر ســـنة خمس وخمسين وستمائة وولى الإمامة بعده الشيخ الفقيه الصالح الزاهد الورع أبـــو الحسن على بن حميد ثم توفى الخطيب أبو القاسم المزدغى المذكور فولى الخطابة الفقيه أبو عبد الله محمد بن زيادة الله المدنى إلى أن توفى وبأثره توفى أيضاً أبو الحسن بن حميد رحمها الله تعالى، فخطب بعدهما بتقديم فقهاء المدينة وأشياخها الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمن بن مشونة وقدم للإمامة الشيخ الفقيه القارئ أبو العباس بن أبى زرع وأقامـــا فى ذلـــك مدة من سبعين يوماً فخطب بعد ذلك الشيخ الفقيه أبو عـــبد الله محمـــد بـــن الإمامة كل ذلك بأمر أمير المؤمنين أبى يعقوب فى سنة تسعة وثمـــانين وستمائة إلى أن توفى فى تاسع ذى القعدة من سنة ثلاث وتسعين وستمائة فخطـــب بعده الفقيه أبو الحسن يحيى بن أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابـــن عمـــران بن الفتوح المزذغى فى يوم الجمعة التاسع عشر لجمادى الأخير سنة أربـــع وتسعين وستمائة وتقدم للإمامة الفقيه المحدث الأصولى أبو العباس أحمد بن راشد العمرانى عن أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب رحمه الله فى موفى عشرين من شوال

سنة ست وعشرين وسبعمائة ، فخطب بعده ولده الفقيه المحدث أبو الفضل محمد وكان حسن السمت قليل الضحك مولعاً بقضاء حوائج الناس ممن عرف ومن لا يعرف تارة بنفسه وتارة بماله وتارة برسالته مؤثراً جواداً حتى أنه لايرد سائلاً ولا شاعراً قصده بل يبادر لقضاء حاجته وربما عدله بعض الناس فى ذلك فكان ينشدهم متمثلاً :

لا تقبلن الشعر ثم تُضيعُه	فتنام والشعراء غير نيَّام
وأعَلمْ بأنهم إذا لم ينصفوا	حكموا لأنفسهم على الحكَّام
وجناية الجانى عليهم تنقضى	وعفا بهم يبقى على الآيام

وكان الناس يتوسلون به عند الخلفاء والأمراء وغيرهم فى حوائجهم لمنزلته عندهم وكان كثير تسبباته فى الحراثة والزراعة والغراسة وكسب أموالاً كثيرة وكان كثير الأنباق لنفسه وحاشيته لا سيما فى المواسم والولائم إلى أن ارتكبته ديون كثيرة وغفل عن ضبط ماله والتفقد لا حواله واسترسل بالمسامحة للوكلاء فتعين عليه مال جسيم مبلغه أحد والثلاثون ألف دينار وثلاثمائة دينار كلاهما من الذهب العين من جملتهات ودائع كانت بيده ولم يبلغ ما ألفى بيده وقدره من الأملاك والرباع وغير ذلك عند طلب الناس أموالهم وقيامهم عليه حاشى عشرة ألف دينار وخمسمائة دينار من الفضة أقتسمها الغرماء حسب ديونهم . ولما سمع أمير المسلمين أبو الحسن رحمه الله عند تحققه بذلك صرفه عن الخطبة والإمامة ورأى أن ذلك مما يقدح فيه وأنفذ أمره بصرفه فرفع له هذه الأبيات :

أمولاى يا فخر الملوك ومن لـه	مزايا على كل الملوك الأكابر

أما إن تحنَّ أو ترحّم شـــأفتى [1] وحبك ثاو فى الحشا والضمائر

وحّبك [2] فى قلبى إليك مجـــدَّد لذا كل باد فى الأنام وحاضـــر

فكيف يضيع الحب يانور ناظرى وأنت إمام ذو[3] العلا والمآثـــر

فكيف يكون المرء أعنى جيبكم [4] مضاهاً مهاناً فى القرى والحواضر

وقد قال أهل العلمُ طَرابفاســـنـــا بأن الذى قد كان ليس بضائـــر

وغاية ما فد عددوه [5] صغائـــر ولا[6]فرح فيمن قدأتى بالصغائر

أأبعَدُ عنكم دون فعـــــل كبيرة وأمنع قهراً من سعود المنابـــــر

ولو كنت يا مولاى أعلم أن مـــن رقى منبراً مثلى يكون مناظرى

لما طمحت نفسى لشيء من العلا والزمتها هون [7] الصفوف الأواخر

ولمـــا وقف عليها السلطان قدم على صرفه وكتب الأمر بذلك لمدينة فاس مـــن منصورة تلمسان فى الثالث عشر شعبان سنة ست وأربعين وسبعمائة ووقف الأمير أبو الحسن رحمه الله على قصيدة من نظمه كان اراد رفعها المقامة العلى حين غلـــبه الدين يستنجده ويعينه فى دينه فخجل من ذلك وأجرى له جراية مبلغها مائة

---

(1) وردت فى الأصـــــل شاختى .

(2) وردت فى الأصـــــل حـــب .

(3) وردت فى الأصـــــل ذى .

(4) وردت فى الأصـــــل عبيدك .

(5) وردت فى الأصـــــل عددوها .

(6) وردت فى الأصـــــل فـــدح .

(7) وردت فى الأصـــــل بين الصواب فى المتن .

دينار وخمسون ديناراً فضه كل شهر على أن توفى فى عقب شوال سنة ثمان واربعين وسبعمائة ومن القصيدة :

مالى سوى المقتدى بالكتب والرسل — بعد الالاه أمير المسلمين على
مالى سواه لما أرجوه من مقر — مالى سواه لنيل السؤل والأمل
نجل الخليفة عثمان الذى وضحت — منه المعالى وضوحاً غير محتمل
أعنى أبا حسن قطب الملوك ومن — أحيى الخلافة فى علم وفى عمل
عز الملوك إذا خطب ألمَّ بعهم — غيث العفاة أمان الخائف الوجل
بحرا السماحة فياض للوارده — عذب ويرويك فى نبل وفى نهل
ينسيك يوم هياج الحرب عمرهم — عند الطعان وما عمرو بمحتمل
ماضى العزائم فرد فى شجاعته — يوفر على كل ذى وصف وذى مثل

ونقل مثل هذا انما هو ليكثر الشاعر على القناعة وليذكر المغرور ويعتبر الغافل فخطب بعده الفقيه التالى لكتاب الله تعالى أبو محمد عبد الله الجنيارى كان رحمه الله كثير الصوم وقدمه لذلك أبو الحسن أمير المسلمين رحمه الله إلى أن توفى يوم الخميس السادس لشهر جمادى الأولى من أبو الحجاج يوسف بن عمر الأنفاسى بتقديم مولانا أبي عنان رحمه الله بعد الاستخارة والنظر والإصلاح للمسلمين وقبل التقديم بعد أن أبدأ لنفسه أعذاراً لم يسمح له فيها للمصالحة التى غلبت على أعذاره وفرح الناس بتقديمه له وشكروه على اعتنائه بالأمور الدينية وبعث له فى أول خطبة خطبها كسوة سنية على برنوص وبدن كلاهما أبيضان من صوف وأحزام للتردية وجندان للتعميم ودراعتين من ثوب الرصان وقبطية شراشية العمل ، قال الرسول الذى حملها له أن قيمتها أزيد من مائة دينار من الذهب ولما وصلته خجل من ذلك وقال أن هذه الكسوة لا تصلح لمثلى وفيما على من اللباس

كفايـــة وفهـــم منه طلب المعافاة فى قبولها . فقال له الرسول : أنت من أهل العلم وعندك وجوه لأخذها وأنما قصد مرسلها ومهديها التنوية بأهل العلم مثلك ليمتاز أهـــل الخطـــط من غيرهم وليعلم الناس بتقديمه لك وبما فى الهدية من التودد فقبلها وشكر عليها ودعا له بصلاح الأحوال ثم لبسها فى حال خطبته الأولى ثم وهبها بعد ذلـــك لمـــن يستحقها من كرماء البلد، وأقتصر على عادته فى لباسه ولم يزل عنده محمولاً على المبرة والاكرام مقضى الحوائج على الدوام وخطب نائباً لاعذار أبداها الشيخ القاضى الراوية المحدث أبو عبد الله محمد بن الحاج ابنى الحسن على بن عبد الـــرزاق الجزولى وما زال أبو الحجاج يوسف يعتذر على القيام بها إلى أن أستبدلها لـــلقيام بذلك الفقيه أبو عبد الله بن على المذكور واقام خطيباً إلى أن أختل حفظه وظهـــر عجزه من الخطبة، فخطب بعده الفقيه الأعدل الصـــالح أبو محمد عبد الله ابـــن الخطيـــب أبي محمد عبد الواحد ابن الخطيب أبي عبد الله محمد بن ابى الصبر بـــتعيين أبي عـــنان رحمه الله تعالى لذلك فى يوم عجز من ذكرو ذلك يوم الجمعة الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة. وتوفى الفقيه أبو عبد الله ابـــن على عبد الرزاق المذكور فى يوم الأحد الرابع لذى القعدة سنة ثمان وخمسين وســـبعمائة وبقى الصالح أبو الحجاج إماماً إلى أن مرض وعجز عن القيام بالإمامة فقـــدم ولـــده الشاب الصالح الولى الوريع أبا الربيع سليمان نائباً عنه فى ذلك بعد أبائـــه مـــنه ثم أجـــاب فى يوم الأربعاء الثامن عشر لرمضان سنة ستين وسبعمائة وأستمر الاستنابة إلى أن توفى والده المذكور فى يوم الأحد الثالث عشر لشعبان سنة إحدى وستين وسبعمائة واستقل ولده أبو الربيع بالإمامة وظهر عنه خبر واستقامة ثم تأخـــــــر من تلقاء نفسه نفع الله به لأمر ظهر له فى ذلك، وأجتمع لأبى محمد عبد الله الصبر المذكور والخطبة والإمامة فى أواخر عام ستة وستين وسبعمائة .

ما زيد من البنـــاء
فى الجامع

ومــن الــزيادات فى الجامع المذكور الباب الأكبر الغربى الذى بسماط الموثقـــين بـــنى من مال الأحباس فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى السـبتى سنة خمس وخمسمائة كذا قاله صاحب المقياس ثم صنع بخارجة قبة الجص المقربسة التى عليها الآن الغربية الصناعة سنة سبع عشرة وستمائة على الخطيب أبى عبد الله بن موسى المعلم قاله صاحب الأنيس . والباب الأكبر المعروف الآن بباب الشماعين بنى من مال الأحباس فى أيام القاضى أبى عبد الله محمد بن داود سنة ثمان عشـرة وخمسـمائة كذا كتب فى قبة الجص التى بداخله وصنع مرتفعاً واسعاً على صـفة الباب القريب منه المذكور أيضاً وركب عليه مصراعان عظيمان قد حسنت فأعدتـاه عـلى مـا هو الآن عليه وحين حفر أساس هذا اللباب وجد على يسار الداخل منه حيث هى الدكانة الآن بناء مغبى قدر أنه كنز فهدم بعض الأقباء فوجد تحـته صهريج طوله ثمانية أشبار وعرضه كذلك وقية ماء معين وبالصهريج سلحفاة قـد ملاتـه وأختلفوا فى إخراجها ثم رأوا أن يشاوروا فى ذلك فقهاء فاس فأشاروا بتركها فى موضعها وأن يعاد الأقباء عليها كما كان ، وهذه الفتوى لا تصلح والله أعـلم لأن السلحفاة إن كانت فيها الحياة ولا يجوز أن يبنى عليها وإن كانت ميتة فـلا يجـوز أيضاً بناء المسجد على الميتة اللهم إلا أن يكون ذلك الماء وغذاء لهما وليـس فى البناء عليها تعريب لها فلا يمنع البناء عليها وأيضاً فقد كان من تقدم ربما جـرب غـير مامرة وقوع الضرر لمن يريد إخراجها من موضعها . أما لكونه جناً عامراً أو غير ذلك والله أعلم .

ولما تم بناء هذا الباب عمل بأعلاه قبتان ، أحداهما من الجص بداخله، وعملت القبة الثانية من خشب الأرز بخارجه، ثم اضطرمت نار من جهة باب السلسلة وأحرقت ما مرت عليه من الأسواق إلى أن وصلت قبة الخشب المذكورة فأحرقتها، وذلك فى شهر جمادى الأخيرة سنة إحدى وسبعين خمسمائة ثم حدد خارج الباب والقبة التى أحترقت وصنعت القبة من الجص على نحو ما فى الآن على يد أحد عمال الموحدين فى سنة ستمائة كذا كتب فيها وكان الأتفاق فى ذلك من بيت المال . وفى أيام القاضى أبي عبد الله محمد بن داود زيد فى الصحن بلاطان من الجهة الشرقية ومن الجهة الغربية كذلك وفرش الصحن فى أيامه حسبما ذكره صاحب المقياس ومن الأنيس : أن الصحن كانت فيه قعرات يحتبس فيها الماء فتطوع العريف المشعر أبو عبد الله محمد بن أحمد صخر بفرشه من ماله . وكان له أربع من الدور موروثة عن أبيه فباعها وأنفقها فيما يحتاج إليه من أجور وجير وغيره وتولى فرشه بيده ولم يأخذ فى ذلك كله من أحد شيئاً وقال : أنما ابتغيت بذلك وجه الله تعالى وهو الفرش الذى به الآن . وفى طوله من شرق إلى غرب مائتا صف وثلاثة وأربعون صفاً، فى كل صف مائتا أرجورة وثمان عشرة أجورة فيصبح فى تكسيره ثلاث وخمسون ألف أجورة وثمان عشرة أجورة غير ست وعشرين أجورة. وفى طوله أيضاً من الأشباره مائة واثنين وثمانون شبراً . وفى عرضه خمسة وعشرون شبراً ومما زاده القاضى محمد بن داود بصحن الجامع المذكور فعل له مظلاً من سقف كتان تنتشر عليه كل يوم جمعة فى زمن الصيف يحجب بها الشمس عن المصلين المتآخرين عن الرواح لبعد المنازل الذين لايجدون محيصاً عنه لتضايق الجامع وجعل فى اطنابه سلسلتان تجريان فى بكر موثقة بالرفود الدائرة على جوانب الصحن ترتفع بها المظل مدة الحاجة إليه ثم أنه يحط ويزول ويحذف إلى وقت الحاجة إليه . أيضاً وجعل فى مواضعه فرجا يتنفس منه الهواء وبقى كذلك أعواماً إلى أن

تمزقت وأهمل النظر فيه وبكره ظاهرة إلى الآن كذا نقله صاحب الأنيس وقد أنشد فى معنى ذلك :

تفسحت الدنيا بعد لك فى الورى	وفسحت لما ضاق للخلق جامعاً
شكى صحنه شمس الظهيرة ضاحيا	فاظللته ظلا على الوهج دافعاً

ولما كثرت العمارة بالمدينة فى أيام أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين [1] وضاق الجامع بكثرة المصلين إلى أن كانوا يصلون بالشوارع والأسواق. أجتمع فقهاء المدينة وأشياخها ورفع ذلك للقاضى أبي محمد عبد الحق ابن عبد الله بن معيشة الغرناطى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ودالوا له كيف

(١) هو على بن يوسف بن تاشفين اللمتونى أبو الحسن أمير المسلمين بمراكش وثانى ملوك دولة الملثمين المرابطين ولد بسبتة سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤ م وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه ، بمراكش . قال السلاوى: ملك من البلاد ما لم يملكه أبوه ، لأن البلاد كانت ساكنة والأموال وافرة والرعايا آمنة بإنقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقة أبيه فى جميع أموره . وقال ابن خلكان : كان حليماً وقوراً صالحاً عادلاً ، ومن أعماله أنه جاز إلى الأندلس سنة ٥٠٣ هـ ، مجاهداً فعبر البحر من سبتة فى جيوش تزيد على مائة ألف فارس. فأنتهى إلى قرطبة ثم فتح مدينة طلاموت ومجريط ووادى الحجارة و٢٧ حصناً من أعمال طليطلة . وعاد وكانت له بعد ذلك معارك مع الفرنج حالفه فيها الظفر. وفى أيامه ظهر محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى (ابن تومرت) فعجز على عن دفع فتنته وأضطربت أموره فمات غماً فى مراكش سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٣ م ولم يشهر خبر موته إلا بعد ثلاثة أشهر منه . ومدة خلافته ٣٦ سنة و٧ أشهر .
انظر المزيد فى : الاستقصا ١/ ١٢٣ – ١٢٦ ، الحلل الموشية ٦١ – ٩٠ ، الحلل ٥٣ ، جذوة الاقتباس ٢٩١ .

تصح الزيادة فيه وبينوا له وجوها فى الإعانة على بنائه وعلموه أن كثيراً من أوقاف المساجد عند كثير من أهل فاس قد أدخلوها فى منافعهم وحسبوها من أموالهم وأنها تقوم بالنفقة بالزيادة المذكورة فشاوروا فى ذلك الخليفة على بن يوسف وأعلموا أن ذلك من عمل رفع الدين والتوسعة للمصلين لا سيما فى يوم الجمعة الذى فى أعياد المسلمين فأذن للقاضى وتوجه الطلب على النظراء والوكلاء فى ذلك ومحاسبتهم فذكر أن الذى أبرزته المحاسبة ثمانون ألف دينار فضة ثم أمرنى شراء الأملاك التى كانت بقبلة الجامع فأشتراها بأحسن شراء قيل إن أكثرها كانت لليهود لعنهم الله وكان أعلمهم أن من الفقه إذا ذاق الجامع فأن جيرانه يجبرون على بيع ما يحتاج إليه منها فأجابوا لذلك وحين كمل الشراء أراد أن يهدمه ويبيع ما لا يحتاج إليه من نفضه فأجتمع ذلك أزيد المشارات به ثم أخذ فى البناء فتمادى البناء فى هذه الزيادة فكملت عشر بلاطات من صحنة إلى قبلته وأخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب وما يحاديها من وسط البلاطين المتصل بهما فعل ذلك بالجص المفريس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ودائر القبلة التى عليه ورفش ذلك كله بورقة الذهب والأزورد وأصناق الأصبغة وركب فى الشماشات التى بجونب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ثم أخذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن وأمر بعمل المنبر الذى به الآن على نحو ما ذكر قبل من أجل أن الذى كان قبله قد درس وقد ذكرناه ثم بدأ العمل فى بناء مقدم القبة حيث يدخل على مصلى الجنائز فعزل القاضى ولم يتم ما أراده وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وتقدم غيره ولم يشرع فى شىء من ذلك وبقى على حاله إلى أن ولى قضاء المدينة الشيخ الفقيه أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القيسى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ويذكر أن النفش والتذهيب الذى كان بأعلا المحراب ودائر القبة التى عليها غطى ذلك

كلـه بالكاغيد وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن على الدخول لفاس والصلاة فى الجامع المذكور لأن كان ذلك مشغلاً للمصلين . ويذكر أيضاً أن التراب والكدان الذى بنى به هذه الزيادة كان يخرج ذلك من كهف عميق تحت هذه البلاطات الثلاث والكهف الآن فى باب مطيق بالقطعة التى بين المحراب والباب المدرج المحدث هناك . وأما الماء الذى صرف فى ذلك فكان يسقى من البئر الذى بصحنه كل ذلك تحرياً من الشبهات كذا نقل صاحب المقياس وصاحب الأنيس .

الثريا الكبرى

وأما الثريا الكبرى فأنها كانت بموضعها قبل عملها به ثريا مثلها فى الحزم فدثرت وتكسرت، وصنعت هذه فى أيام الفقيه الخطيب أبى محمد عبد الله بن موسى المعلم رحمه الله تعالى، وكان الإنفاق عليها سبعمائة دينار وسبعة عشر ديناراً وخمس دينار من الدنانير الفضة ، كل ذلك من أحباس الجامع . وفيها من الصنعة ما يعجز عنه الآن ، وفى زنة هذه الثريا سبعة عشر قنطاراً وربع قنطار وفى دورها أثنان وثلاثون شبرا وعدد مراكير قناديلها خمسمائة وعشرون والذى يملأ فوارير سرجها من الزيت خمس قلل وكانت تارة تسرج كلها فى ليالى رمضان وتارة لا تسرج إلى أن ولى الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبى الصبر قضاء المدينة فرأى أنه أسرجت كل ليلة من رمضان قد يكون ذلك سرفاً فى مال الجامع وإن لم تسرج قد يكون ذلك تضيعاً لما أريد بها فأقتضى نظره بعد أن استشار أمير المسلمين مولانا أبا يعقوب وأنهى إليه أمرها فأمره أن يأخذ فى ذلك بالوسط من الأمور وأن تسرج كلها فى طول ليلة السابع والعشرين من رمضان ويسرج بعضها فى سائر ليالى العام فدام العمل على ذلك إلى الآن وأنشد فى ذلك :

تحكى الثريَّا الثريَّا فى تألفهـــــا   وقد لواها نسين وهى تَتَّقـــد
كأنها لذوى الإيمان أفئـــــدة   من التخشع جوف الليل ترتعد

وكـــان الأســـتاذ المزيانى رحمه الله جالساً تحت هذه الثريا فى ليلة السابع والعشـــرين ومعه الأستاذ ابن عبدون الأديب رحمه الله ومالك بن المرحل ومحمد بن خلف فأنشد الأستاذ ارتجالاً :

انظر إلى ثرية نورهـــا يصـــدع   با للألاء سجف الغســـــق

فقال ابن عبدون :

كأنها فى شكلها ربـــــــوة   انتظم النور بها فاتســــــق

وقال ابن المرحـــل :

أعيذها من شر ما يتقـــــــى   وفجأة العين برب الفلـــــق

وقال ابن خلـــف :

باهى بها الإسلام مـــا أشرفت   كأساتها عند مغيب الشـــفق

ومما قيل فى السروج :

انظر إلى سروج فى الليل مشرفة   من الزجاج حولها وهى تلتهب
كأنها ألسن الحيات بـــــارزة   عند الهجير فما تنفك تضطرب

وأمــا المســـتودع الذى به الآن فأنه عمل فى أيام الفقيه الصالح ابى محمد يشكر ليوضع فيه مال الجامع وأوقافه ، وكان الناظر فى أيام بنائه الفقيه أبو الفقيه أبو القاسم بن أحمد وبناه بعد أن حفره فأعدته إلى أن وصل للأرض الصحيحة ثم بلط ذلط بالرمل والجير والجص وحصن داخله وسقفه بخشب الأرز عمل له خمس منافيس بصفائح من حديد مقلوبة وبابان أحدهما محدد كل ذلك على الوجه المحكم والعمل الوثيق وجعل لكل باب منها ثلاثة مفاتيح وجعل داخله صناديق كبار عليها أقفــال وثيقة ثم وضع فيه أوقاف الجامع وأمانات الناس . وكان الأنفاق عليها من مــال الأجاس فأحتيل عليه فى أيام الفقيه أبى عبد الله محمد بن عمران وسرق منه مال ، وأجتهد فى البحث عن ذلك فلم يجد خبزاً .

البيلة والخصة ودار الوضوء

وأمــا البيــلة والخصة ودار الوضوء وآحداث البناء الذى فى توسيع باب الحفاة وتجديدها وفتح الباب المقابل لفندق ابن حيون من الجهة الشرقية فإن ذلك كله فى أيام الفقيه الصالح أبى يشكر.

يحكــى أنــه قدم إليه رجل من باى يازغة يعرف بموسى بن عبد الله بن ســدات كان له مال كثير واستوطن مدينة فاس ولزم محبة الشيخ أبى محمد يشكر وذكــر له أن بيده مالاً طيباً ورثه عن ابيه وأن أباه اكتسبه من حراثه بيده فى أرضه ومــن ماســية تولــدت عنده ويريد أن يصرفه فيما يحتاج إليه فى جامع القرويين فــتوقف الشيخ أبو محمد يشكر إلى أن ينظر فى ذلك وصار يلح عليه فى أن يعمل

دار وضوء بقرب الجامع المذكور لتكون عوناً للمصلين فلما رأى غرمه وتوسم فيه الخير حملة على الجامع وأوقفه بين المنبر والمحراب واستحلفه أن ذلك المال طيب فحلف له ثم قال له : اشرع الآن فيما اردت والله ينفعك بمقصودك فعمد إلى فندق كان فى موضع دار الوضوء فأشتراه وشرع فى نقضه ثم بحث عن موضع يجلب له الماء لذلك فأعلم بمواضع شتى استشار فيها أهل المعرفة والنظر فلم يروا له اصلح من عين بدويرة بحرنيز وتعرف العين بعين فرمال .

ومنها إلى الجامع خمسمائة ذراع فأشترى ذلك بأضعاف القيمة حرصاً على مراده ثم رغب من الشيخ أبي محمد أن يعلم بذلك الأمير الناصر الموحدى ويستأذنه فى أن يجلب هذا الماء حيث يباح له من الشوارع فأجابه إلى ذلك وأعلم به الناصر فأسعفه فى مطلبه وشرع فى بناء دار الوضوء وجعل له خمسة أعشر بيتاً ولكل بيت مصراعان وفوق سقف كل بيت طاق لدخول الوضوء وأخرى فوق بابه وعلق فى كل طاقة من طيقان أبوابها صبحية من الزجاج تسرج فى أول الليل وأخره وفى كل بيت أنبوبه من نحاس ينصب منه الماء فى نقير محفور من حجر طوله شبران وعرضه شبر. وفى سمكها قبة من جص مقربشة العمل مرقشة بأنواع الأصبغة وعلق فى وسطها ثرياولها فوارير زجاج تسرج فى أول الليل وأخره أيضاً وأدار من الجهة القبلية والشرقية والجوفية أحد عشر طاقاً لدخول الضوء بجميعها وجعل بوسطها بيلة من الحجر الأحمر طولها عشرون .....[1] وبجوانبها ثقباً من نحاس مموهة بالذهب ينصب منها الماء للبيلة ملعباً وينحدر منها الماء المستعمل فى الوضوء ....[2] دائر كل ذلك من الرخام الأبيض وحمل على بعضها للقيام بها

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) بياض فى الأصل .

وقصد إلى العين المذكورة فوجدها تنفجر من قوارتين فى حجر صلد يجتمع الماء منها فى بيـت مقبو كبيت الحمام وجعل بازائه صهريجاً مربعاً طول كل جهة منه عشرة أشبار مملساً بالرصاص يطر فيه الماء الخارج من البيت ثم أخرجه منه على شباك من رصاص شبه الشهدة إلى قواديس من رصاص سعتها أكثر من شبر ثم مر بالقواديس منها إلى عقبة الملاحين إلى مسجد الشرفاء إلى سماط القيسارية إلى سوق الحرارين على سوق القرافين إلى المعدة التى بالحانوت المتصلة بالبيلة المذكورة والسقاية المتصلة بها وللبيلة التى بباب الحفاة المغشية بالرصاص، وطول هذه البيلة سبعة وعشرون شبرا وهى متصلة بخارج الباب وقد عمل عليها اشباك من خشب وفتح فيه اربع خوخات وارتفاع هذا الباب ستة عشر شبرا وقد فرش فى أيام الفقيه القاضى أبى عبد الله محمد بن أبى الصبر بالرخام الأبيض والأكحل ويتدفق الماء من جهة المعدة المذكور إلى هذه البيلة المغشية بالرصاص ثم ينصب منها الماء على رخام أبيض وأزرق وأحمر يغسل فيه الحفاة أرجلهم ثم يغور الماء فى قناة معدة لذلك ثم قدم لعمل البيلة والخصة التى بالصحن رجل من سجلماسة يعرف بالفقيه أبى الحسن ابن عبد الله السلجماسى وكان من أهل الإيثار والدين صنعهما لـه أبو عمران موسى بن حسن بن أبى شامة وكان من أهل المعرفة بالبناء والهندسة بعد أن استشار فى ذلك الفقيه الصالح أبى محمد يشكر فأسعف فى ذلك وعمل البيلة وما حولها من الرخام الأبيض وجعل طولها أثنى عشر شبراً وأرتفاعها ستة أشبار وسعتها نحو ثلاثة أشبار وعمقها كذلك وجعل مما يقابل الواقف إليها وعن يمينه وشماله ألواحاً من الرصاص وادار بذلك تكفيف الرخام وجعل على ذلك مما يقابل الواقف شباكاً من الرخام الأبيض من مائة وأربعة وعشرين خاتماً وكتب تحته فى حجر منقوش بخط بارع :

بسم الله الرحمن الرحيم * وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما * ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [1] كمل فى شهر جمادى الأخيرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وجعل تحت ذلك فى ألواح الرخام خمسة أنابيب يصب منها الماء فى البيلة المذكورة أى الشرقية وينصرف للخصة القريبة منها من جهة غربيها قد عملت من طاقتين فى دور كل واحدة منهما ثلاثة عشر شبراً قامت على ساق مقسوم على نصفين كل ذلك من النحاس الأصفر ثم يصعد الماء المنحدر من البيلة فى النصف من الساق يغور فى وسطها من ثمانية أثقاب بجوانب خرشقة من نحاس مموهة بالذهب ثم يغور منها الماء بعد امتلائها فى أثقاب معدة لذلك بجوانبها ويجتمع فى النصف الثانى من الساق فلا تزال البيلة والخصة مملؤتين يقضى منهما المارب للمصلين والعاكفين والواردين وشربهم متى احتاجوا فى ليلهم ونهارهم وهذه فضيلة تكرر على الدوام لهذا الجامع ولمن سعى فى ذلك وأعان عليه من خلفاء الإسلام ثم ينحدر ماء الخصة فى قادوس إلى الميضات التى بعين فرفق بالجهة القبلية من الجامع المذكور.

وأما العيزة التى به الآن فأنها صنعت حين كان الفقيه أبو عبد الله بن ابى الصير ناظراً فى أحباس المسلمين وعلى جامع القرويين .

ومن فوائدها انفق فيها ذلك سنة ثمان وثمانين وستمائة وفيها غرابة الصنعة ونفاسة الخشب وإتقان الإلصاق ودقة الخرط والنقش ما يقضى بالعجب ويصح بالمجاز ومما أصلح فيه الحائط الشرقى مع سقف البلاطين المتصلتين به وذلك فى أيام مولانا أمير المسلمين المتوكل على رب العالمين أبى يوسف رحمه الله تعالى سنة أثنتين

---

[1] سورة البقرة الآيــة ٧٤ .

وثمانين وستمائة ونفق فيه من مال الجزية والأعشار وأصلح فيه ايضاً الحائط الجوفى من حد الساباط الفاصل بينه وبين الدار الموقوفة لسكنى أئمة المسجد إلى حد باب السفر الذى هناك وذلك فى أيام أمير المسلمين مولانا أبى يعقوب رحمه الله وانفق عليه خلخال ذهب صار له من مال دخائر الروم وكان إصلاحه على يد قاضيه بالمدينة الفقيه ابى غالب ابن القاضى أبى عبد الرحمن المغيلى وذلك فى سنة ست وتسعين وستمائة ، ومما أحدث فيه الباب المدرج الذى بقبلته وذلك أن الوالى بالمدينة ابا الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الحدودى تأمل الباب المدرج الذى بنى فى أيام الناصر الموحدى بجوفى جامع الأندلس وأراد أن يفخم أمر جامع القرويين ويصنع له هذا الباب ليكون مماثلاً للباب المذكور فبناه على هيئته الآن ، وصنع أسفله نفيراً من الخشب مملس بالرصاص وجلب له الماء من عيون ابن الصاوى المعروفة الآن بعيون الكرازين ليدخل عليه الحفاة وغيرهم وعمل عليه شباكاً من خشب الارز بباب يدخل إليه من اراد الصعود إلى أدراجه وصنع بأعلاه الأدراج باباً عظيماً وصنع عن يمين الخارج من أسفل الأدراج سقاية ونمقها بالجص والزلات والحجر المنحور وأنواع الصبغة كل ذلك بصناعة محكمة ظريفة العمل وجلب إليها الماء من الموضع المذكور ويذكر أنه انفق فى ذلك من مستغلاته سنة أثنتين وتسعين وستمائة وأراد أن يعلم بذلك أمير المسلمين أنه أحدث فى الجامع مالا يحتاج إليه بغير إذن فأمر أمير المسلمين بغلقة على أن ينظر فى أمره فغفل عن ذلك. فلم يزل البا مغلقاً إلى الآن . ومما أحدث فيه الأمير ابو حفص رحمه الله ابن مولانا أمير المؤمنين أبى سعيد أن يجعل فى الجهة الغربية من الجامع تسع من الطبقات لزيادة الضوء فى تلك الجهة وأمر أن تجعل على المحراب مقصورة وشرع الصناع فى عملها وأنشئت من ثلاثة أجناب من خشب الأرز بصناعة النقاشين ارتفاع كل جانب منها تسعة أشبار وطول الأوسط منها ثلاثون شبرا وهو الذى صنع فيه الباب

وطـــول كـــل واحد من الأخرين خمسة وعشرون شبراً ثم أن الناس ظهر لهم أن فى ذلـــك مضـــرة بإنقطاع الصفوف وميلولتهم عن الإمام وغير ذلك فرفعوا الأمر فى ذلك لفقائهم فلقوا الأمير المذكور وبينوا له ما ظهر للناس من الضرر وقالوا له مع ذلـــك أمـــوراً مصلحية فرجع عن عمله ثم وضعت فى جهة من جهات الجامع وهو الآن يـــلفق الـــباب المدرج المغلق وكان عمله فى سنة أثنتى عشرة وسبعمائة وكان الانفـــاق فيـــه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أبى عبد الله محمد بن ميمون وكـــان الأمـــير أبـــو الحسن رحمه الله اراد أن يجعل بهذه الأضباب مقصورة بجامع القصبة من فاس لصغر التى به وخدمها ولعله أنسى ذلك والله أعلم .

الناقـــوس الكبير

وأمـــا الـــناقوس الكبير المعلق بالبلاط الأوسط المقابل لباب الكتبيين فهو الـــذى ألقى بجبل الفتح من بر الأندلس لما إفتتحه المسلمون على يد الأمير الأسعاد الشهير بأبى مالك عبد الواحد بن امير المسلمين أبى الحسن رحمه الله تعالى وزنة هذا الـــناقوس فـــيما قاله عز الدين بن جلبون عشرة قناطير . ولما وصل لفاس أمر أمير المؤمـــنين أبـــو الحسن أن يعلق هناك بعد أن يعمل فى جوانبه أجناح قائمة متفرقة ليـــبقى ظاهراً ويعمل عليها مراكز لقوارير الزجاج التى تسرج فيه وبأسفله أوصال مبـــلغها أثـــنى عشر تحت كل وصل منها بلور مكفف . وفى وسط ذلك طبق شبة الخاتم . . . . [1] عن الأوصال .

---

(١) بيـــــاض فى الأصـــــــل .

وفى أسفل حروف الطبق بناديق مخروطة ونطاق ممدود فى جوفه كل ذلك من النحاس الأصفر المنقوش المخدوم بصناعة محكمة وكتب على النطاق ما نصه :

{ الحمد لله وحده ، أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن ابن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى سعيد أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين " أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق " } أيد الله سلطانهم وأسعد عصرهم وزمانهم وهو الناقوس الملقى بجبل الفتح حرسه الله أفتتحه بعون الله وتأييده أمير المسلمين أبو الحسن أيده الله ونصره على يد ولده الأمير الأسعد أبى مالك ومولانا أيده الله ونصره محاصراً مدينة سجلماسة ، وكان أفتتاح الجبل المذكور فى يوم الأحد الخامس لشهر شوال المبارك من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وفى أثناء عمل الناقوس عمل له قبة من الجص متقنة العمل وعلق بها فى منتصف شوال سنة سبع وثلاثين وكان الإنفاق فيه من مال الأحباس على يد الناظر فيها أحمد بن الأشقر الصنهاجى .

الخزانــــــــة

وأمــا خزانة الكتب التى يدخل إليها من أعلى المستودع الذى بها فأنه لما كـــان من رأى أبى عنان رحمه الله تعالى حب العلم وإيثاره والاهتمام به والرغبة فى انتشــاره والاعتــناء بأهله ومتحمليه والتودد لقرائه ومتحليه انتدب لصنع هذه الخــزانة وأوسع على طلبه العلم بأن أخرج لها من الكتب المحتوية على أنواع من عــلوم الأبــدان والأديان والسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتــنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى ورجاء ثواب الله الأوفى وعين لها فــيما لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن لــه رغبة أخرى له على ذلك جراية مابدة تكرمه وعناية وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وسبعمائة.

وأمــا خزانة المصاحف التى أمر بها مولانا أمير المؤمنين أبى عنان رحمه الله تعــالى فى قبلة هذا الجامع الناطقة بالخير الجامع أنشىء على حسنها مالم يسبقه إليها أحــد مــن أئمة هذه الاصقاع فأنه رحمه الله تعالى صورها فى ذهنه الثاقب المبير ثم أبــرزها لمن صنع شخصها الجليل الحصين فأبدأ من ذلك ما هو المعهود من حسناته المأثورة وسهل بها على الناس تلاوة القرآن فى كل وقت من الأزمان وأعد فيها جملة كــثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط البهية الجليلة السنية وأباحها لمن اراد التلاوة فيهــا بعــد أن كتب على كل شخص منها بخط يده لتوقيعها مر الأعوام والليالى والأيــام ونجــز لها من قيد لاخراجها من هذه الخزانة وإبرازها وردها لصيانها فى موضعها وإحرازها وذلك عند الفراغ من حاجة الناس إليها فلا يبدل ذلك ولا يغير إلى أن يــرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأجرى لذلك جراية واسعة وكرامة ورعاية وكتب فوق هذه الخزانة ما نصه:

{ الحمد لله أمر بإنشاء هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبد الله فارس أيد الله أمره وأعز نصره } بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة رزقنا الله خيرها .

زاوية القـــراء

وأمـــا زاويـــة القراء البهية التى أمر بها مولانا المستعين رحمه الله فى شرقى هـــذا الجامع مسافتها على ساباط هنالك وجعل لقبليها وجوفها من صناعة الخرط والـــتزيين بالأصـــبغة مـــا يهيم به المار والسالك ورتب فيها قراءين يتلون القرآن ويجـــتهدون بطـــول الســـبعة أيام ، وعلى مر الأزمان وأجرى جراية فى كل شهر يشـــفعون فيها ومرتبون لذلك بسببها وتم عملها فى أواخر شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة .

أبواب الجـــامع

ولهذا الجامع من الأبواب بين صغار وكبار ثمانية عشر بابا منها فى الجانب الغـــربى بـــاب مجلس القضاة ومصلى الجنائز وباب الصفر المعروف بباب القطاعين وبـــاب الأوليـــاء سمـــى بذلـــك لكثرة من يدخله من العباد وباب الكتبيين وباب الشماعين الذى سعته ستة عشر شبرا وارتفاعه أربع وعشرون شبراً وباب المؤثقين المقـــابل لـــتربيعة الزافين وسعته وأرتفاعه مثل الذى قبله . وفى الجانب الجوفى باب الحفاة المقابل لدار الوضوء القديمة وباب الصفر المعروف بباب العميان سمى بذلك لكثرة ملازمتهم للقعود فيه يمثلون للناس وباب بيت النساء الأصفر بمؤخر الصحن

وباب خصة المقابل لمدرسة الرخام وباب بيت النساء أيضاً الذى بأسفل الساباط الفاصل بين الجامع ودار الخلافة .

فى الجانب الشرقى الباب المقابل لطائفة من فندق ابن ميمون ويعرف بباب ابن عمر سمى باسم النجار الذى صنعه وهو المحدث فى أيام أبى محمد يشكر والباب المقـــابل لدرب ابن حيون والباب المقابل لدار الخصة التى من أحباس الجامع وباب المدرج الغريب المقابل لدرب السبع لويات ويتصل بزاوية القراء .

وفى الجـــانب القبـــلى الباب المدرج المحدث على يد الحدودى المغلق الآن والباب الأصغر الذى يدخل إليه رائفة ابن الفرديس .... [1] هناك لمن يدخل مســـتتراً عـــن أعـــين الناس للخصومات والإيمان وغير ذلك وبين مجلس القضاء والصـــحن الصغير والزاوية التى هناك بمقدم القبلة بابان فاصلان بذلك وبين مقدم الصحن والدارين المذكورين وقبلة الجامع خمسة أبواب.

فـــالأول : الذى يدخله الخلفاء لشهود صلاة الجمعة عن يسار المحراب ، وبـــاب موضع المنبر وثلاث مشارع لها أغلاق تنطوى عند فتحها من عمل جيد وصناعة غريبة ، والباب الأول من هذه الثلاثة القريب من المنبر منه يخرج الخطيب لـــلجمعة ومـــنه يتوجه للصلاة على الجنائز ومنه للمقام المعلم للجنائز التى تكون هناك.

---

(١) بيـــــاض فى الأصـــــــل .

سوارى
وسقوف وما أشبه ذلك

وعـــدد سواريها الحاملة لسقوفه ثلاثمائة سارية منها عشر من حجر ملون غريب الخلقة والمشترك من جملتها اثنتان وثلاثون وساترها يدار عليها ومن الاتفاق الغـــريب فى هـــذه السوارى أن الثلاث منها عن يمين الواقف مستقبلاً تحت الثرية الكبرى يبصر من دار بها جميع أبواب الجامع التى بداخله وطوله من شرق إلى غرب الـــثلاثمائة وثمانون شبراً ومن مقدم القبلة إلى الجوف ثلاثمائة شبر بعد تكسير مسافة المقدم المذكور وعدد بلاطاته إحدى وعشرون من شرق إلى غرب وسبعة عشر من مقدم القبلة إلى الجوف مع الصحن الأكبر الذى طوله من شرق إلى غرب مائة شبر وثلاثــة وتســعون شبراً وعرضه من قبله إلى جوف خمسة وسبعون شبراً وبلاطاته المســقفة أحد عشر بلاطاً والحاسرتان ومساحة جميعه ثلاثة مراجع وثلاثة أرباع من المــرجع السلجماسية ويملاه من المصلين ثلاثة عشر الفاً على أن يكون فى البلاط الواحـــد سبعمائة وخمسة وستون شخصياً أساطين البلاطات مائة وخمسون شخصياً بعـــد حط مواضع السوارى وعدد ثرياته التى توقد بها المصابيح مائة وثلاثون ثرية جميعها من النحاس مختلفة الألوان والصناعات والأشكال والهيئات منها عشر معلقة فى الـــبلاط الأوسط ، وفى الثريات يندرج العشرة نواقيس المكفنة بالنحاس والباقى الـــثريات وذلك مائة وعشرون معلقة فى سائرة وزعموا أن فيها من مراكز السرج ألفـــان اثـــنان يوقد بعضها فى سائر ليالى السنة ويكثر منها فى ليالى رمضان ويوقد جميعها فى ليلة السابع والعشرين وعدد صبحات الزجاج التى توقد فيه أيضاً بطول ليـــالى الســـنة سبعون العارفات، منها خمسون وسائرها ثلاث وبلديات وعمل فى خارجه بدائرة حريمه فى مواضع معروفة أربعون سراجاً يهتدى بها المارون فى دربه ،

وقـــد أعد لخدمة ذلك كله على الكمال ونادى الأمير بحكم ذلك وأجرى له جراية مـــن فوائـــد أحباســـه وينـــبغى أن تكثر سرجه وتغاظ فتائلها إذا أكثر ماله فإن الاستضـــاءة بهـــا أنســـاً للمجتهدين ونفياً لمكان الريب ومبلغ غلات أوقافه على أخـــتلافها فى بعـــض الأعوام عشرة آلاف فضية ومن جملتها الفندق الكبير الشهير الـــذى بسوق الشماعيين المحبس عليه من قبل مولانا أمير المسلمين أبى يعقوب رحمه الله تعـــالى وكان سبب تحبيسه أنـــــــه كان من جملة المستخلص لجانب الخلايف وقد أهمـــل.

فأما فى أيام ولاية أبى عبد الله الحدودى بفاس أمره القاضى الفقيه محمد بن أبى الصبر ببنائه وإصلاحه فتوقف فى ذلك وأراد أن يكون يإذن من الخليفة فأشهد القاضـــى على نفسه شهوداً أنه لم يوقف له فى المحاسبة وإلا فهو الملتزم لما اتفق فيه فبـــناه الحدودى على ما هو الآن عليه تحت نظر أبى عيد الله بن أبى الصبر ثم أعلم بذلـــك الخليفة أبـــا يعقوب فسأل الحدودى عن ذلك فأعتذر له وبين له ما التزمه أبو عبد الله بن أبى الصبر فأغاض لذلك الخليفة وأمر باشخاصه وبعث غليه الحشم قوماً بعد قوم وخيف من ذلك عليه .

فـــلما جـــاء القاضى مر فى أثناء ذلك على الروضة التى دفن فيها الإمام الحافظ أبو بكر بن العربى رضى الله عنه وإذا بفقير خارج منها ومخاطب أبى عبد الله ابـــن أبى الصبر وقال له : قل بحق لطفك بلطيف صنعك وجميل سترك دخلت فى كـــنفك تشـــفعت بنبيك فحفظ ذلك ودخل على الخليفة وهو يذكر هذه الألفاظ فـــأقعده بازائه وأظهر له الإكرام والإعتناء به ثم سأله عن سبب أمر للحدودى فى الفـــندق فقال له أمرته بذلك لأنه غلب على ظنى أنك تحبسه على جامع القرويين فأستحسن ذلك وشكره وأشهد فى الحين بتجبيسه كذا كان يتكرر ذلك النقل عن أبى عبد الله بن أبى زرع وغيره وصارت هذه الألفاظ التى دعا بها وكان تحبيس هذا

الفندق بسببها عند الناس كنزاً جامعاً وحرزاً نافعاً يتوسلون بها إلى الله فى حوائجهم وظهرت عجائبها لكثير من الناس فى مطالبهم ويذكر أن الرجل الذى لقنها إليه هو سيدنا الخضر عليه السلام .

وعدد المؤذنين والقومة فى غالب الأوقاف اربعون شخصياً ، ولهم على ذلك فوائد مختلفة على مر الأعوام .

وأما قراءة الحزب فيه بعد صلاة الصبح والمغرب فأنه كان أمر به يوسف ابن عبد المؤمن بن على فى سائر بلاده كذا نقله ابن صاحب الصلاة وأنتدب لذلك ناس وأستمر إلى إيالة مولانا أمير المسلمين أبى الحسن رحمه الله فأنه أجرى جراية لعشرة اشخاص من القراء، وأمر بذلك فى سائر جوامع بلاده .

وأما قراء الكتب فيه الاسماع الناس بعد الفراغ من قراءة حزب الصبح فإن بعض أئمة الجامع فى أول إيالة بنى مرين أعزهم الله كثيراً ما يقرءون بين يديه فى أول النهار تفسير القرآن للثعلبى رحمه الله تعالى وحلية الأولياء .... [1] وذلك فى جهة خاصة منه وكان له قارى محسن مجيد لذلك وكان يحضر له بعض الناس وكانوا يجلسون متفرقين حلقاً حلقاً ربما يأخذون فى أمور الدنيا إلى أن تطلع الشمس فينصرفون فاشر هذا الإمام على القارىء المذكور أن يتصدر حزب المحراب فى الوقت المذكور ويقرىء هنالك من هذه الكتب فصولاً لاسماع الناس فأجتمع إليه سائر من كان يجلس به وأنتفع الناس بذلك كثيراً وربما أجتمع فى المجلس آلاف من الناس وذلك سنة إحدى وخمسين وستمائة . وأعلم بذلك من كان إذ ذاك من خلفائهم فأستحسنه وأجرى للقارئ جراية فأستمر ذلك إلى الآن. ومما جرى فى انتصاب قبلته فيما حكى أن أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب

---

(١) بياض فى الأصل .

العـــالمين أبا يوسف بن عبد الحق رحمه الله تعالى لما أمر ببناء المدرسة اليعقوبية التى بقبلـــته سنة سبعين وستمائة ، وكان الذى انفرد لنصب قبلتها المعدل أبو عبد الله محمــــد بن الحباك، ولم يشاركه فى ذلك غيره من أهل علم الهيئة ، وظهر أنها منحرفة عـــن قبـــلة جامع القرويين ، أنهى الأمر فى ذلك لمولانا أمير المسلمين أبي يوسف ، وقـــال بعـــض مـــن حضره ممن لا يحسن السؤال والجواب فى ذلك، أن فى بعض المساجد فاس انحراف بعضها عن بعض فرأى رحمه الله أن جمع الفقهاء المذكورين فى أهل زناتة للنظر فى ذلك .

يحكـــى أنهم قالوا : أن جامع القرويين نصبت قبلته على سمت القبلة التى نصبها الرجل الصالح مولانا إدريس بن غلديس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن ابى طالب رضى الله عنه ومر على ذلك منون من السنين .

وقد صلى إليه جماعات من العلماء والصلحاء والقضاء وأمراء العدل ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ومنن لا يحل لأحد أن يظن بهم إلا خيراً ، فلم يغيروا ذلك وما حرفوه وما يظهر فى بعضها من الإنحراف عن بعض قد يقرب من الصواب على رأى من يرى أن المطلوب من قبلة سائر الأفاق إنما هو الجهة لمكة شرفها الله تعالى ، والجهـــة فى ذلـــك حاصـــلة وهذا القول هو الراجح وإلا فكيف يقدر على تعبير السمت أعنى سما البيت بل غاية ما عند الناس فى الآفاق الغائبة عن مكة شرفها الله تعالى المحافظة على جهة البيت لا سمته .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ما بين المشرق والمغرب قبلة» [1] فأقر ذلـــك كلـــه عـــلى حال رحمه الله تعالى ، وقد سلم هذا الجامع المبارك من البدع

(١) رواه الترمذى والنسائى .

القبـيحة ولم يتعرض فيه لما تعرض له فى بعض الجوامع ومما ظهرت فيه بدع فأن الله سبحانه يلهم من يزيلها فيزيلها .

وجـرى فى أول سـنة تسع وأربعين وسبعمائة أن بعض المجودين لقراءة القـرآن إن كان يقعد بين يديه الأحداث من الصبيان لتجويد القراءة، فيجتمع إليه الناس إلى أن حدثت فتن بسبب ذلك فرفـع ذلك الشيخ الفقيه الصالح المدرس أبي فـارس عـبد العزيز بن محمد القروى رحمه الله تعالى ، فأشار على بعض من له الحكم النافذ أن يشتَّد فى تغيير ذلك ويمنعه كل المنع ، فمنعهم وفرق جمعهم لما رأى أن هـذا الصـبى القـارئ بين يدى هذا الشخص ، ليس ممن يقصد التعليم وليس جلوسـه كجـلوس المتعلمين، أمر بإقامته عملاً على ما فى المعونة وغيرها من إقامة الـذى يجـلس فى المسجد يوم الخميس أو غيره لقراءة ونظم ذلك الشيخ الأستاذ المقـرى أبـو الحسـن بن سبع رحمه الله تعالى قصيدة قرئت على الشيخ أبى فارس المذكور فكانت سبباً فى اشتداده على قيام هذا القارئ وهى هذه :

ألا حقّقوا عنى مقالا هو الجـدّ — لمنهاج أهل الحق يسعده القصد
أقول احتساباً ليس منى تعصبـا — على أحد ممن ينظمه العقـد
ذووا العلم فى الأقراء ضاعت صفاقم — ولم يبق منهم غير ما وسمه يبدو
رياء وعجب وانتصاب وشـهرة — وتسميع من يرجى بتسميعه رفد
ألم ترفاَس الغرب أعظم بقدرهـا — وجامعها العظمى التى لها تعتـدّ
لنفع عبادة وتوسيع موطـن — جميع رجال الله يأتونها وفـد
فلا بدع فيها ولا منكر لهـا — وابوابها إن فتحت فلها السـدّ
تبرز للإقراء فيها جماعـة — ولا خبرة تبدو لديهم ولا تعدو
سوق نغم يبدونها بتحيـرّ — وتغريب الحان لمن راح أو يغدو

فبعضهم فى جمعة وخميسها ... يُجمّع حفلا ليس يحضرها العدّ

وعن مثل هذا حذّر الحبر مالك ... وقال لمن يبديه فى المسجد الطردُ

وبعض بتلميذ له حسن صورة ... شباب له صوت لنيل الهوى رصَدُ

كأقراص نحل قد ملئن بسمّها ... فباطنها حتف وظاهرها شهدُ

فيقعد أمَّا لا صقا جنبه وأمَّا ... أماماً بارزاً للورَى يشدُو

يعظُمه بالقرب منه مكانُه ... وذلك عند الله جل أسمه بُعْدُ

ويعقبه جزء من الوعظ رافعا ... به صوته كيما القلوب له تغدُو

يردده والحفل غصّ بأهله ... برفع وحطّ هاكذاالصدر والوردُ

وجلّ كتاب الله عن حاله الغنا ... وتطريب أصوات بها يقع الوجد

ولهذا لعمر الله أكبر بدعه ... يقابلها المنع المبّرح والردّ

لفاعلها لعن وتغليظ زاجر ... وأيضاً وعيد فى القيامة لا وعد

وما هذا آثار قوم تقدموا ... من أهل كتاب الله أفتاهم الجهدُ

فقد عرفوا عند النهار بصومهم ... وفى ليلهم ايضاً الفهم السهدُ

مضت بهم الأعصار يبكى لفقدهم ... فيا أسفا إدخل بى عنهم الفقد

مضى سلف الأخيار أكرم بقدرهم ... وأعقبهم قوم قد ابتدعوا نكدُ

وليس لهم فهم به يتدبَّر ... معانى كتاب الله إذ منه يهتدوا

جميع علوم الخلق منه تفرعت ... وكل حدود الله فهو له حدٌّ

أو أمرنا والنهى قد وضحت به ... ولا كن عين الجهل عن ذاك تنسدّا

وقد حرمت فيه الفواحش كلها ... سوا ظهرت أوابطنت حالها فردا

وقد جاء فى الإخلاص فيه أوامر ... وذم رياء الناس جاء به السرُد

وفى صحبة الأحداث ما ليس يُحتفى ... من الذم إذ فى فعله عُدمَ الحمدُ

فخالطهم فى دينه سوف يرتد ... ولو بعد حين إذ شياطنهم جندُ

ولا تصلــح الصبيان إلا لمكتب | وليس لهم فى موطن غيره رشدُ
فعمر بن يوحنـــا ومُدرك عبرة | فبعدا لذا منها عُرىَ المنع تشتدُّ
بها تضرب الأمثال فأحذر سلوكها | طريقته حتى بغيك اللحـــدُ
فكم من جليل القدر قد حظ قدره | ورفعته لمّا تلاقته المــردُ
فإن تقبلوا نصحى فأنى نصحتكم | ونفسى قد اوصيتها ذاك لاتعدُّو
فمن كان ذا نصح لعلم يُقـــره | بإخلاص تقوى الله يعقبه الرشد

وقال الإمام الشاطبى وهذا بأبياته التى مطلعها .

خذوا النظم عنى وانظروا منه سرةُ | فلا يخشى فى اللحن عمر ولازيد
وإنى لأهل العلم والدين خـــادم | نعم وأشهدوا أنى لجملتهم عبدُ
فهم عمدتى فالله ينفعنى بهـــم | وتشملنى البشرى من الله والسعدُ
وأما رعاع الناس من كل مــدَّع | فليس له قبل لدَّى ولا بعــدُ
وليس على الأعمال منهم طلاوة | متبحة منها الصحائف تســود
لهم مثل ما قالوا كذا هو عندنــا | ومن أنتم حتى يكون لكم عبدُ

ومدرك المشار إليه فى هذه الأبيات هو الذى أنشد الرجز المشهود فى شأن عمر بن يوحنا النصرانى ولولا ما التزمناه من ستر الحجابات ودفن السقات لشرحنا أمرهما والله يعصمنا من الفتن والزلات فمن الرجز قوله :

من عاشـــق نـــاد هواه دان | ناطق دمع صامتُ اللســـان
موثق قلب مطلق الجثـــمان | معذب بالصدَّ والهجــــران
من غير ذنب كسبت يـــداه | غير هوى نمت به عينــــاه
شوقاً إلى رؤية من أشـــقاه | كأنه عفاه من أضنـــــاه
ياليتنى كنتُ له زنَّـــــارا | يدير بى فى الحضــر حيث داراً

وهــذا الجامع المبارك قد يشكو بلسان حاله فى بعض الأزمان عند أهماله وذلك أن الذين أسسوه وزادوا فيه الزيادات ورتبوه وحبسوا له الأوقاف وعظموه ومــنعوا الســرق وحددوه وإنما فعلوا ذلك بنية صالحة وعزمات ناجحة وإنما لكل أمرى ما نوى ، فينبغى أن يسلك فيه طريق الأولين ويتبع فيه سبيل المؤمنين والقيام بالمســاجد ركــن من أركان الدين وطهارتها ونظافتها شرط فى صلاة المصلين وهى بيــوت الله أن ترفع وتظهر للقائمين والعاكفين واركع وأجوال الدنيا فيها ممنوع وأعمــال الأتية الأخراوية فيها مشروع والصلاة هى أول ما ينظر فيها من أعمال العبيد.

فأما القرب من الل بقبولها أو الطرد والردَّ بردها فرحم أمراً وأفنى أمرها وأدَّى الأمانة التى طوقها وضبط أحوالها ونمى أموالها وأخذه من حله بعد الاجتهاد وصــرفه فى مواضــعه بالنظر الدينى ووجه السداد وازال ما يكون من ضرر فيها واستقصــى أمورها حتى يستوفيها فذلك يكون ممن رفع قدرها وأستوجب أجرها ومهما اسصبحها الاهمال والاعراض شكت غذ ذاك بلسان الحال لربها .

روى أن مســجداً مــن المســاجد ارتفع إلى السماء شاكياً إلى الله بأهله لعملهم أعمال الدنيا فأستقبلته الملائكة وقالوا بعثنا بهلاكهم .

حكــى معــناه الإمــام الطرطوشى رحمه الله فى كتابه المسمى بالنهى عن الحــوادث والــبدع الذى فى تواليفه وحملنى ذلك على سرد هذه الفصول لتكون تنــبيها لمن ولى أمرها من الغافلين وإيقاظهم من السنات عسى الله أن ينفعنى وأياهم فى الحية وبعد الممات .

بناء جامع الأندلس

فلـــنرجع إلى بناء جامع الأندلس وأنما بناء بناء جامع الأندلس فأن الذين أعتـــنوا بتاريخ فاس ذكروا أنه أبتدى البناء فيه سنة خمس وأربعين ومائتين على يد مريم بنت محمد بن عبد الله الفهرى بعد أن أشترت أرضه بوجه صحيح وأنفقت فى ذلك كله من مالها الموروث عن أبيها وسمى بذلك لأن الإمام إدريس بن إدريس لما وفـــد عليه وقد فروا من جزيرة الأندلس أنزلهم بالعدوة الشرقية من فاس فسميت لذلـــك بعـــدوة الأندلـــس فـــلما أسس جامعها وكان ممن أعان فى بنائه جملة من الأندلسيين الساكنين هناك سمى الجامع بهم .

وقـــال الـــبكرى[1] فى مسالكه أنه من ست بلاطات وله حصن صغير به أصول جوز وغيره من الأشجار وسقاية غزيرة الماء تعرف بسقاية مصمودة .

ويذكـــر أن أحد أعمال الناصر لدين الله المروانى حين تغلب على بعض بـــلاد المغرب زاد فيه زيادات من جملتها الصومعة التى فيه وذلك فى جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة حسبما كتب فى عتبة بابها ونقلت الخطبة إليه من جامع الأشـــياخ على يد حامد بن حمدان الهمدانى عامل عبيد الله الشيعى حين تغلب على فـــاس سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وكان أول خطيب خطب به الفقيه الصـــالح أبـــو الحســـن بن محمد الصدفى فلم يزل الأمر على ذلك إلى أن زيدت فيه الزيادة المشار إليها على يد عامل الناصر لدين الله ولم يزل أيضاً كذلك إلى أن أنهى للناصر

---

(1) هـــو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى أبو عبيد مؤرخ جغرافى ، ثقة علامة بالأدب ، له معرفة بالبنيات . مات سنة ٤٨٧ هـــ / ١٠٩٤ م .
انظر المزيد فى : الصلة لابن بشكوال ٢٨٢ ، طبقات الأطباء ٢/ ٥٢ ، بغية الوعاة ٢٨٥ ، آداب اللغة ٣/ ٨٤ .

الموحدى سنة ستمائة أنه يحتاج إلى الإصلاح والبناء فأمر ببناء الباب الكبير الجوفى الذى به الدرج وسعته عشرون شبرا وأرتفعه سبعة وعشرون شبراً وأدراجه أربعة عشر درجة وبأسفل إدارجه شباك من خشب الأرز فيه ثلاثة أبواب فى الأوسط بيلة من الحجر الأصفر ينفجر بها الماء من وادى مصمودة الذى يمر بأسفل هذا الباب الأكبر ليغسل الحفاة بها أقدامهم وصنع بأعلا هذا الباب قبتان أحدهما من جص مقربسة من داخله ، والثانية من خشب الأرز من خارجة وكان بها طلسم للخطاف لا يدخلها ولا يمر بها ولا يعشش فيها وتعطل فى سنة عشرين وسبعمائة.

وأمر أمير المسلمين الناصر أيضاً ببناء سقاية ومدخل لبيت صلاة النساء وعليها مصرية لأئمة الجامع وذلك عن يمين الخارج من الباب المدرج المذكور بالقرب من ذلك دار الوضوء تحاكى التى بجامع القرويين وخصتها أمر بعملها السيد أبو ذكريا ء يحيى نجل خلفاء الموحدين وأنفق فيها من ماله ولم يزل الجامع كذلك إلى أن أعتلت سقفه وجملة سواريه فأنهى خطيبه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن حسونه فأمر هذا الجامع لأمير المسلمين مولانا أبي يعقوب رحمه الله فأمر بإصلاحه وذلك على ماهو عليه الآن فى سنة خمس وتسعين وستمائة.

وكان الناصر الموحدى قد جلب الماء له بعين خارج باب الحديد فأعتدل فى مواضع وجلب له الماء من وادى مصمودة إلى إيالة أمير المسلمين أبي ثابت فأمر بجلب الماء له من العين التى بخارج باب الحديد وببناء السقاية الغربية من جوفه وذلك سنة سبع وسبعمائة .

وعدد بلاطاته من شرق إلى غرب خمسة عشر بلاطاً ومن قبلته إلى جوفه ثلاثة عشر بلاطاً . وفى قدم منكبه المرتفع مقدار بلاطاً بعد تعديل أنحرافه بالمساحة وفى طوله على هذا من قبله إلى جوف مائتا شبر وعرضه كذلك فيكون فى البلاط الواحد وأساطينه من أشخاص المصلين ثلاثمائة شخص فعدد ما يملاه من المصلين

علــى هــذا أربعة آلاف شخص ومائتا شخص بعد حط مواضع السوارى وعدد سواريه مائة سارية وأربع وثلاثون سارية .

وأمــا صــومعته فى كل وجه منها ستة عشر شبراً وفيها من الأدراج أربع وسبعون درجة وأرتفاعها سبعون شبراً فيما ذكر .

وفى أعلى هذه الصومعة قبة لجلوس لتداول الأذان وعدد المؤذنين والقومة فى هــذا الجــامع المــبارك عشرون شخصاً ولهم على ذلك عوائد وفوائد معلومة عــندهم، وقد عمل فى أعلى هذه الصومعة صارى من خشب ينشر فيه علم أيض فى أوقــات صــلاة الــنهار وفنار مسرج فى أوقات صلاة الليل فىأول إيالة مولانا المــتوكل أبى عنان ، رحمه الله والمؤذنون فى هذه الصومعة يفتضون ف أذانهم بأذان أهــل جــامع القــرويين عــلى العادة القديمة المتداولة الآن وعدد ثرياته الكبرى والصــغرى إحــدى وستون ثريا الكبار منها خمس قد علقت بالبلاط الأوسط منه وبقيــتها فى ســائر الجامع فى مواضع معلومة منه ، وفيه من الصبحيات العرافيات خمس بقرب محاربة وثلاثون بسائره وفى فرش صحنه من الأجر من شرق إلى غرب مائــة صــف وأثنان وثلاثون صفاً فى كل صف مائتا أجورة وله من الأبواب تسعة فمن الجانب الغربى ثلاثة ومن الجوفى الباب المدرج المذكور . ومن الجانب الشرقى خمسة منها أثنان يدخل منهما الماء المقدم الجامع الذى سصلى فيه على الجنائز وبين مقدم الجامع وبيته الأعظم بابان مدرجان أحدهما عن يسار المحراب لدخول الخلفاء مهمــا أرادوا وشــهود صلاة الجمعة، والثانى عن يمين المحراب والمنبر ومنه يخرج الخطيب ومنه يتوجه لصلاة على الجنائز .

وكــان جملة من الفقهاء يدرسون العلم فى مواضع من هذا الجامع وكانوا أهــل الشورى ممن يقتدى بهم يقصدهم الناس من أقطار البلاد فمن متجرد لتلاوة القــرآن . ومن مدرس ومن طالب لما شاء من فنون العلم فى مجالس شتى وكان فيه

أيضاً جملة من الصلحاء والعباد يلتزمونه قد تفرقوا للعبادة بعد تحصيل العلم ويقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم والتماس الدعاء كالفقيه الولى الصالح الورع حبر الله بن القاسم الأندلسى نزل عدوة الأندلس من فاس ، وهو ممن أدخل علم مالك إليها وهو من مشاهير فقهائها ومتقدميهم ، لقى أصبغ بن الفرج[1] وسمع منه كذا قال صاحب المدارك حدث عنه أن رجلاً رأى فى النوم كان قائلاً يقول له إن شئت أن ترى نظير معاذ بن جبل فصل فى الجانب الغربى من جامع الأندلس فالذى يدخل وعليه برنس وصفته كذا وكذا هو ذلك ففعل ارجل فإذا بجبر الله القاسم رضى الله عنه على الصفة الذى ذكر له القائل فى النوم وهو ممن لحق دراس ابن إسماعيل ويذكر أن دراساً رحمه الله لما قدم بكتاب محمد بن المواز ، قال له جبر الله ما الذى جئت به فأخبره بالكتاب المذكور فقال له أذكر منه فجعل دراس يذكر المسائل وجعل جبر الله يجبيه بما حفظ ومالم يحفظ فاسه على أصول مذهب مالك رحمه الله فما خالف كتاب محمد بن المواز إلا فى مسئلة الثور إذا اشتراه فى أول الدراس ولم يشرط أنه دراس فوجده لا يدرس فهل هو عيب يرد به أم كذا ؟ المفيد بخط الفقيه أبى عبد الله محمد ابن القاضى أبى العباس أحمد بن ميمون القشتالى رحمه الله تعالى وكان يلتزم هذا الجامع المبارك وولى القضاء بعدوة الأندلس الفقيه الصالح الولى أبو محمد عبد الله بن محسود الهوارى قدم من مدينة ياوربة ونزل فى جهة باب بنى مسافر عن عدوة فاس الأندلس وكان رحمه الله عدلاً ف آحكامه ورعاً فى جميع أحواله رحل إلالقيروان ، وله محمد بن أبى زيد رضى الله عنه وشاهد تأليفه النوادر وكان يعدّ من رجال المدونة ثم ولى القضاء بمدينة فاس كما ذكر

---

(١) هو أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع فقيه من كبار المالكية ، قال ابن الماجشون : ما أخرجت مصر مثل أصبغ وكان كاتب ابن وهب وله تصانيف مات سنة ٢٢٥ هـ .
انظر المزيد فى : وفيات الأعيان ١/ ٧٩ ، خطط مبارك ٦/ ٣٠ .

وكان رجلاً مثلاً من الدنيا مجتهداً فى الآحكام أقام الحدود كلها قتل وصلب وقطع الأيدى وأقام اللعان وغير ذلك .

ولما وفى رحمه الله طلب فى فاس من يعامله فى شئ فلم يوجد له معامل فبحث عن سمنه وزيته من أين كان يشتريه فوجد له صاحب بعكاشة الزيتون يشترى له بها الزيت والسمن ويبعثه إليه ويأتيه قوته من القمح من هوارة وزوجته تغزل كسوته ، من الثياب القطنية رضى الله عنه وقبره بخارج باب الجيسة فى أسفل الموضع المعروف بالقبة له كرامات يطول ذكرها والدعاء عند قبره مستجاب .

وقصدنا بهذه الحكايات وأمثالها البركة فى سود أقوالها وجاء نزوله الرحمة عند ذكرهم وذكر أمثالهم فأنه قال سفيان بن عيينة[1] رضى الله عنه عند ذكر الصالحين تنزل الرحمات .

وقال بعض المشايخ حكايات الصالحين جند من جنود الله تعالى يثبت بها قلوب أوليائه وشاهد قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [2]وما أحسن قول القائل :

أحب الصالحين ولست منهم ... وأرجو أن أنال بهم شفاعة
وأبغض من بضاعته المعاصى ... وإن كنا شركاء فى البضاعة

---

(1) هو سفيان بن عيينة بن أبى عمران ميمون الهلالى أبو محمد الكوفى الأعور ، أحد أئمة الإسلام . روى عن عمرو بن دينار والزهرى وزياد بن علاقة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر وخلق . وعنه الشافعى وابن المدينى وابن معين وابن راهوية والفلاس. مات سنة ١٩٨ هـ . قال الشافعى : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

(2) سورة هود الآية ١٢٠ .

وهـــذا انـــتهى القول فيما قيدته واله سبحانه ينفع بما قصدته ونويته أنى لســـت من أهل التأليف ولا من أهل المعروفة بالتصنيف لكن إذا صير النبت رعى الهشـــيم لعمـــر أبيك ما نسب الصلا إلى كرم وفى الدنيا كريم ولا كن البلاد إذا قشـــعرت وطرح نبتها رعى الهشيم فمن نقل ما قاله الناس فما عليه من بأس فمن وجـــد فى هـــذا الـــتقييد خطأ فليصلح أو زلا لا فليمح فالعصمة من الخطأ متعذرة وأوقـــات البحث غير مستحضرة والأمر كله لله ولا حول ولا قوة إلا بالله والحمد لله الـــذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وحسبنا الله وكفى وسلام عـــلى عـــباده الذين صطفى وصلى على سيدنا ومولانا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً أثيراً يرد عليه بكرة وأصيلاً . انتهى *

---

* هـــذا أخر الكتاب .

فهرس

فهرس

رقم الإيداع	٨٥٦٥ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي	977-341-032-3